انتحار غير مقصود

دلشاد نجم

الكتاب : انتحار غير مقصود (قصص قصيرة)
المؤلف : دلشاد نجم
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٧٥٥٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 65 - 5

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

انتحار غير مقصود

قصص قصيرة

دلشاد نجم

- لاشيء.. للمرة الألف، لاشيء!

أقفل بريده الالكتروني بغضب، وترك المقهى عائدًا إلى شقته الضيقة حيث تنتظره زوجته وأولاده. مضت سبعة أشهر منذ جاء إلى (عمَّان) ولم يزل ينتظر وصول رسالة من منظمة الهجرة العالمية تتضمن (رقم القضية) وموعد إجراء المقابلة.

لم يبق من أصدقائه والمجموعة التي تزعمها سواه، طار الكثير منهم إلى أرض الأحلام، أو استلموا على الأقل رقم القضية الخاص بهم وهم يستعدون لأجراء المقابلة.

فكَّر وهو يجر خطواته إلى شقته بسوء الطالع الذي يلازمه منذ الصغر.. كان من أوائل المتقدمين للحصول على التأشيرة، وكان حماسه كبيرًا إلى درجة أنه تطوع لإرسال حالات أصدقائه ومعارفه عبر البريد الإلكتروني، صوَّر لهم بطاقاتهم الشخصية والجنسية وبقية الأوراق المطلوبة حسب التعليمات التي حصل عليها عن طريق بحثه المحموم عبر المواقع الإلكترونية،

وأرسلها إلى عنوان المنظمة، فجاءت الردود متسلسلة واحدة بعد الأخرى دون أن تمر به أو تسقط سهوا في صندوق بريده.

- كلهم يطيرون بأجنحتي أنا.

قالها في نفسه وهو يلوِّح بذراعيه مثل طائر دون أن يأبه للناس حوله.

مرَّت في ذاكرته قصص شقائه مع الأوراق، حين أضاعوا له استمارته الخاصة بالتقديم إلى الجامعة، وحين أخطأوا في تهجئة اسمه على جواز السفر، وحين سرقوا محفظته ومعها هويته الشخصية ورخصة القيادة، وحين اتصلوا به من الكلية ليبلغوه اعتذارهم لأنهم اكتشفوا خطأ في حساب تسلسله وبأنه الثاني على دفعته وليس الرابع كما جاء في دليل التخرج، وأخيرًا حين استلم الجميع رقم القضية وموعد المقابلة سواه.

كان إحباطه ينمو ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، ومع كل مرة يفتح فيها البريد ولا يجد فيه ما يستحق عناء القراءة.. لقد صرف حتى الآن أكثر من نصف دمه وهو يدفع ليشرب ويأكل وينام ويتنفس مع عائلته في بلاد غريبة، مياهها معلبة وأسعارها سياحية، دون أن تتاح له فرصة عمل ليوقف نزيف الأوراق الخضراء من بين يديه. وكان عليه أن ينتظر لأجل غير معلوم لأن ما صرفه لن يجد ما يعوضه في الوطن بعد أن فقد عمله يوم هرب بجلده من آتون حروب لا تنتهي... لقد أدمنه

الهم ودخَّن عمره يومًا بعد يوم ولم يبق لديه سوى الانتظار.. انتظار أنساه الهدف وراء الانتظار.

- خراء.. لقد وصل رقم الخراء.

قالها مرارا وهو يهذي من حمى كوابيس هي ضيفة لياليه منذ جاء ليسكن بالقرب من سفارة أرض الأحلام.. كان يحلم دائمًا بمقبرة عظيمة وامتداد لا متناهٍ من شواهد القبور، وعلى كل شاهد كانت هناك أرقام.. أرقام من عدة مراتب، مثل رقم القضية الذي ينتظره منذ أشهر.. كان يهذي بتلك الأرقام في حُمى لياليه، ويبحث عن رقمه بينها، يعدها بلا هوادة حتى تهزه زوجته فيتوقف دون أن يجد ضالته.

- ما أفكر فيه هو ما لن يكون، وما لا أفكر فيه هو ما يكون.

.. نتيجة يتوصل إليها مع كل فشل ومع كل مرة يفتح فيها بريده، لكنه لم يعتنقها كعقيدة، بل كان يسخر من زوجته حين تعزو كل شيء إلى الحظ فيطمئنها أن الجميع ملأ نفس الاستمارة التي ملأها هو وبنفس الخط الذي لم يكن خطه ولا خط شخص آخر، بل خط الحاسوب، لكنها تذكره دائمًا بالناس الذين ساعدهم في التقديم أو الذين لم يسبق لهم أن استعملوا الحاسوب ورغم ذلك حصلوا على رقم القضية وطاروا، فيهز رأسه محتجًا دون أن يجد لسوء الحظ هذا أي تفسير.

كانت تلك المرة الأخيرة التي يذهب فيها إلى المقهى، والليلة الأخيرة لبقائه في عمّان، لم يكن ذلك بسبب وصول رقم القضية أو حصوله على تأشيرة السفر مثلما حصل مع آلاف آخرين، بل لأنه قرر الكف نهائيًا عن الانتظار، قرَّر فجأة أن ينهي إلى الأبد عذابات سبعة أشهر من آمال غير مواتية.. في تلك الليلة، لم يتحدث لزوجته ولم يلاعب أولاده ولم يصل، بل وضع رأسه على مخدة قهره، وخلد للنوم.. حلم أنه وجد رقمه محفورًا على شاهد قبر رخامي وأنه حصل على المقابلة، هناك أخبروه أنهم لا يستطيعون أن يقرروا إلى أين يرسلوه، إلى الجنة أم إلى النار، لأن ملفه مفقود وأن عليه أن يبحث بنفسه عن أولياته، فبحث في كومة من الأوراق.. كانت كمية الأوراق هائلة، وكان البحث فيها شيقًا ومضنيًا؛ إلى درجة أنه لم يستيقظ على الإطلاق.

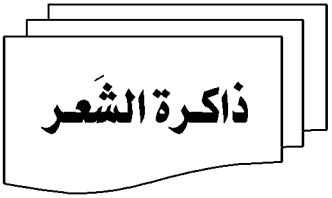

بدأ الصوت الفولاذي الرتيب للمقص الكهربائي يملأ رأسه الخانع لظل المقصلة التي راحت تجز بلا رحمة شعر رأسه الذي كان قد أصبح كثيفًا كحقل تجاوزه الحصاد منذ زمن، فراح الشعر الذي أصبح رماديًا لكثرة ما خالطه الشيب يتدحرج مثل كرات الثلج على منحدر الشرشف الأزرق.. سينتهي الحلاق عما قريب وسيضع، كما في كل مرة، لمساته النهائية وسيمرر الموس على الرقبة التي طالما تحملت هفواته فخُدشت في غير مكان وجُرحت في غير مكان.. سيدور بينه وبين الحلاق حوار مبرمج سلفًا، وسيقاوم الأخير، مقاومة خُلبية، كي يرجئ استلام أجرته لكنه سيأخذها أخيرًا متظاهرًا بأنه يقبلها على مضض بسبب إلحاح زبون قديم..

فكر مع نفسه وهو يقاوم التنويم المغناطيسي الذي يُمارس عليه، فمنذ خضع للمرة الأولى في حياته لمقص الحلاق وهو يعاني خوفًا جعله يتصور العملية برمتها جراحة لا مبرر لها. كيف لا وموسم جز الشعر الذي كان يلي العطلة الصيفية أيام

الدراسة المبكرة كان لا يلبث أن يضع نهاية لحريته ويعلن مقدم الخريف.. خريف شعره المتساقط على مذبح الحلاق، فيعود بأذنين نافرتين كأذني عجل بعد أن كانتا مخفيتين تحت شعر كستنائي كثيف ينسدل كشلال على جبهته ورقبته حتى ليلامس أحيانًا كتفيه. وهو لن ينسى أبدا ذلك اليوم الذي بكى فيه بحرقة لأن كان عليه الذهاب إلى المدرسة مختلفًا تمامًا عن اليوم الذي سبقه، دون شعر، بعد أن جزه الحلاق عن بكرة أبيه. يتذكر كيف أقنعه الأهل بأنهم سيجمعون شعره وسيعيدون لصقه على رأسه بنفس الغراء المستخدم في لصق الأوراق الملونة الرقيقة في درس الأعمال الفنية.. نام ليلتها مطمئن البال وحلم أنه ذهب مع أبيه إلى محل الحلاق ليستعيد شعره، فوجد الشعر يغطي أرضية المحل، لكنه لم يتمكن من تمييز شعره بينها، فظل يبحث حتى أيقظته أمه ليذهب إلى المدرسة. تذكر الحلم في "تحية العلم" وشكر الله لأنه لم يكن من رهط التلاميذ الذين أخرجتهم الست المديرة من صفوفهم في ذلك الصباح لأنهم تركوا شعر رأسهم يغطي آذانهم مثل الفتيات.

استولت عليه منذ ذلك الحين فوبيا سوداء جعلته يتردد على الحلاق في نهاية كل أسبوع.. كان يتحسس رأسه عدة مرات في اليوم ليراقب نمو شعره حتى إذا شارف الأسبوع على الانتهاء، خُيّل إليه أن شعره طال أكثر من الحد المسموح به وأنه سيواصل نموه حتى يبلغ أوجه في تحية العلم التالي.

تذكر أيضًا تلك الغصة التي كانت تشعل بلعومه مثل نصل ناري معقوف، والتي كانت تواصل ذبحه من الداخل كلما اقترب المساء حيث تقفل المحلات ومنها محل الحلاق.. كانت تخيفه التكتكة الرتيبة لساعة الجدار والنهار المنسحب من شرفات البيت ورهط التلاميذ المطرودين من الصف وهم يشيرون إليه لينضم إليهم،فكان ينفجر باكيًا مطالبًا والده أن يأخذه إلى الحلاق الذي كان ينهي الأمر بأن يقص الهواء فوق رأسه لأن لم يكن هناك شعر ليُقص.

أربع سنوات..أربع سنوات فقط، هي سنين دراسته الجامعية، كانت وحدها المدة التي أطلق فيها شعره على سجيته، فغطى من جديد أذنيه ونزل على كتفيه وعاد مدللاً مثلما كان في فترة طفولته المبكرة. وكم من أنثى عبثت بشعره تحت ظلال أشجار الكالبتوس أيام الجامعة.. أحجم مرة عن الذهاب إلى الحلاق لأربعة أشهر لأن إحداهن طبعت قبلة خاطفة على شعره بينما كان يقرأ في مكتبة الكلية، ولولا أنه أستدعي من قبل سلطات الجامعة ليُخيَّر بين شعره ومستقبله الدراسي، لأطلق شعره ولصنع منه جديلة لم يكن ليقصها حتى تتحرر كردستان. يومها تحايل على الآخرين وقص شعره مليمترات قليلة، أبقاه إلى أقصى ما أمكنه؛ إلى الحافة القصوى المقبولة، حتى إذا ما تجاوزها وسأله الآخرون أجاب أن لا وقت لديه ليذهب إلى الحلاق.

وسرعان ما انتهت أيام عز شعره بانتهاء الدراسة والتحاقه بالخدمة الإلزامية. كانت الحرب مع إيران قد انتهت منذ عامين، لكن حربًا أخرى أشد فتكًا وقسوة كانت تلوح في الأفق. بكى بصمت تحت مقصلة الحلاق وهو يرى شعره يتدحرج فوق الشرشف ليسقط شهيدًا. تساءل يومها عن جدوى الأرض بلا حرية. سيق إلى مركز التدريب والحرب على وشك الوقوع والدنيا كلها تحشد القوة والعدة والحدود في هرج ومرج، لكنه تحمل الثُلث الأول من الحرب وكاد أن يبتلع لسانه عدة مرات عندما حامت فوق رأسه طائرات الفانتوم والميراج وغيرها وهو في ساحة التدريب. لقد رأى بأمِّ عينيه أحد الطيارين من نافذة طائرة مغيرة في فجر أحد الأيام. حدَّق إليه بفضول أكثر منه خوفًا وتابعه حتى ارتفع دون أن يطلق النار وكان يكفي أن يفتح رشاشه كي ينهي حياة العشرات. خُيّل إليه أن الطيار ميزه بين الآخرين وحاوره، لكن الطائرة كانت قد مضت دون أن يتمكن أي منهما من الإجابة على السؤال ذاته: من أجل ماذا حلقت شعرك؟

ولم يلبث أن وجد نفسه، في فجر اليوم التالي، في محنة الاقتراب من النبض الحقيقي للموت المتربص في مكان قصي في الجنوب، حين جاء أمرٌ فوري بنقل قسم من المكلفين إلى مقر الفيلق ليتلقوا دورة سريعة قبل سوقهم إلى الجبهة ضمن قوات الحرس الجمهوري. تردد حين نطق العريف اسمه ليلتحق

بواحدة من تلك الحافلات التي جاءت من أجل تنفيذ الأمر.. مضت الثواني ثقيلة حين كرر العريف قراءة اسمه، لكنه لم يجب، بل دفن رأسه في القمصلة العسكرية وأشار إلى رفاقه، الذين كانوا يفترشون الأرض مثله بانتظار أن يختارهم أو يعفيهم الحظ، أن لا يبوحوا بشيء، فسُجِّل أخيرًا على أنه (غائب منقول).. مضت الحافلات برفاقه أخيرا، لوّح لهم وعاد مع البقية الذين استثناهم الموت إلى حظيرته ومن هناك إلى البيت حيث لبث لأكثر من أربعين ليلة متخفيًا لا يستطيع الخروج لأن شعره رفض أن يطول ليعطيه هيئة مدنية.. صلى طيلة تلك المدة أن ينسحب الجيش من مدينته الصغيرة في أقصى الشمال ليستعيد شعره وحريته.. انسحب الجيش أخيرًا، فأصبح الوطن بحجم كف صغيرة، كف واحدة صغيرة لا تكاد تكفي ليمشط بها شعره الذي أطلقه ليستعيد طوله الأول.

بدأ الصوت الفولاذي الرتيب للمقص الكهربائي بالانسحاب.. كانت تسعة عشر عامًا قد انقضت منذ ذلك اليوم الذي سلم فيه رأسه لمقصلة الحرب اللعينة تلك.. تساءل وهو ينظر إلى شعره المقصوص والمتناثر على الأرض، عن معنى الحرية دون أرض.. وبينما كان الحلاق يرفع الشرشف عن رقبته، قرر مع نفسه أن تكون المرة الأخيرة، فلم يجادل حين أظهر الحلاق سخاءه المعتاد ولم ينتظر ليكرر عرضه بل قال شكرا ومضى دون أن يدفع.

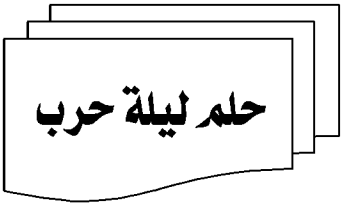

حلم ليلة حرب

كانت الحرب في سنتها الرابعة، وكانت الغارات قد خفَّت بعض الشيء لتعطي الأولاد فسحة كي يخرجوا إلى الشارع ويلعبوا بالكرة خصوصًا في أماسي العطلة الصيفية. كان منزل (آراس) يقع في حي من تلك الأحياء الحكومية البائسة المبنية بنمط واحد ويسكنها نمط واحد من الناس. في الحي أيضًا عائلة عربية جاءت من مكان ما من الجنوب لتستقر في المدينة مع بداية ذلك العام. كانوا يلعبون الكرة و(الغميّضة) وغيرها، لكن في ذلك الصيف، في صيف السنة الرابعة من الحرب، لم تعد تلك الألعاب تلفت انتباه الجارة الصبية، التي كان آراس يلعب من أجلها ومن أجل الفوز برضاها، فمنذ أدخل الولد العربي الدراجة الهوائية إلى الحي، وبنت الحي المدللة تترقب ظهوره بدراجته كي يعلمها كيفية امتطاء تلك الآلة الجامحة. ذهبت تلك الأيام التي كان فيها آراس بطل الساحة، الأسرع والأقوى في الحي.. صار (حارث) البطل الجديد وصارت (نسرين) من حصته. لم يتمكن آراس من إقناع والده بشراء دراجة هوائية قبل نهاية العطلة الصيفية واستمرت نسرين بالابتعاد.

كان آراس قد كون قناعة بأنه خسر الجولة الصيفية تلك، وأن عليه العمل جديًا لإبعاد حارث عن طريقه. كانت تلك الفكرة تدغدغ مخيلته وتتسلل إلى أحلامه.. حلم مرة بأن عائلة حارث شدَّت الرحال لأنهم تلقوا تهديدًا. تحول الحلم إلى كابوس لم يستطع الفكاك من تأثيره. صار الحلم يعيش معه ويكبر حتى بعد انتهاء الصيف وعودة المدرسة.. صار يرى تفاصيل ذلك الحلم وهو يقلب كتبه ودفاتره، في البيت، في الصف، على السبورة، في حديث المعلم، في بيانات الحرب، ومع صوت صفارات الإنذار. كان يرتجف خوفًا كلما مرَّت بخاطره فكرة أن يكف عن انتظار المعجزة.. معجزة أن تُقدم (البيشمركة)على تهديد والد حارث، إذ لابد أن الرجل مهم كي يحمل مسدسًا يشدهُ على بدلة (السفاري) التي كان يرتديها أينما ذهب. كان يخشى أيضًا أن يستقدم بنفسه نهاية تلك العائلة بسبب توقه الشديد للتخلص من حارث.

غير أن انتظاره لتلك المعجزة طال أكثر مما يستطيع تحمله. كان لابد لحارث أن يعود من حيث أتى قبل نهاية السنة الدراسية، فلم يكن يحتمل أن يأتي صيف آخر وحارث يستأثر وحده بالإعجاب. كان لابد أن يخلق تلك المعجزة بدل انتظارها. توصل أخيرًا إلى أن التهديد لا بد أن يكون خطيًا، ومن ثم لا بد أن يكون مطبوعًا على آلة كاتبة، فالحروف المطبوعة تترك انطباعًا أقوى وأكثر إقناعًا. لم يكن قد بلغ الثانية عشر بعد، غير أنه

كان واعيًا لخطورة مجرد التفكير بطبع رسالة تهديد كالتي كانت في مخيلته على آلة كاتبة، ثم أن تلك الآلة كانت غير موجودة إلا عند الحكومة وكان الوصول إليها مستحيلاً في تلك الأيام.

في انتظار المعجزة، كانت خيالاته تلهمه الكثير، فكَّر بطرق عديدة يتمكن خلالها من التسلل إلى آلة كاتبة. فكر أن يكتب بخط يده أو يكلف شخصًا ما.. لكن لا.. قال في نفسه، لا يجب أن يشاركه السر شخص آخر.. إن مجرد افتضاح أمره قد يورطه ويورط والده والعائلة كلها في المتاعب، قد يُعدم والده، كما حدث مع الجار الذي ضبطت في بيته كتب وأوراق ممنوعة.. قد تُساق عائلته إلى مكان ما في الجنوب بدل عائلة حارث، فلن يصدق أحد أن لا علاقة له بأي تنظيم محظور، وأن الأمر لا يعدو كونه شيئًا بينه وبين حارث.

فكر أن يصنع آلة كاتبة بنفسه، فكر بكل السبل المتاحة وغير المتاحة، غير أنه لم يفكر أبدًا، ولو للحظة، بالتراجع. توصل أخيرًا إلى فكرة شيطانية لطبع رسالته.. قام بنسخ الأحرف المطبوعة من مجلة أسبوعية باستخدام ورق الاستنساخ، وضع الورقة السوداء تحت صفحة المجلة وأخذت يجمع الأحرف التي تؤلف جملته القصيرة: " إلى أبي حارث.. اخرجوا من هنا وإلا ستموتون جميعًا ". طبع الرسالة حرفًا حرفًا بأن أمرر القلم على الأحرف المختارة من صفحة المجلة لتظهر مطبوعة على ورقة

بيضاء وذلك بواسطة ورقة الاستنساخ تلك. ظهرت الرسالة وكأنها مطبوعة بالآلة الكاتبة، وذيّلها أخيرًا بالاسم المختصر لإحدى الأحزاب الناشطة آنذاك قبل أن يرميها في باحة منزل حارث في صباح باكر قبل ذهابه إلى المدرسة.

لم ينقض وقت طويل، أسبوع أو أقل، حتى لملمت عائلة حارث متاعها ورحلت عن الحي وعن المدينة كلها.
شككت السلطات الأمنية في المدينة بأمر الرسالة كونها لم تكن تحمل ختم الجهة التي أصدرتها، لكنها رضخت في النهاية لمخاوف أبي حارث الذي قرر أن لا يجازف بحياته وحياة عائلته لمجرد ختم.

اختفى حارث من الحي أخيرًا، لكن آراس لم يوفق أبدًا في كسب إعجاب نسرين حتى بعد أن صارت عنده دراجة يقودها بسرعة عبر شارع الحي دون أن يمسك مقودها؛ مثلما كان يفعل حارث.

صاح الحمَّال، الذي كان ينوء بحمل أثقاله، بامرأة كانت تسد الطريق أمامه :

- تحركي يا امرأة ! ما بالكِ لا تتحركين.. كأنك برنامج (النفط مقابل الغذاء)!

كان (عبد القادر) قريبًا منهما، لكن أذنيه اللتين التقطتا جزءًا من الحوار لم توصلا شيئًا إلى رأسه الذي كان مشغولاً بألف ألف مسألة، بل كان جسده ينوء بحمل أفكار مشتتة ثقيلة إلى درجة أنه كان يخشى أن يختل توازنه فيسقط، وكان يدرك أنه لو وقع فلن يستطيع القيام بل سيفلت ذلك الخيط، خيط حياته الرهيف، وليحدث بعدها ما يحدث... كانت الأفكار تهجم عليه مرة واحدة دون أن تترك له الخيار لينساق وراء إحداها فتقوده إلى حوار مع نفسه، وكان نسغ الحياة قد جفَّ تقريبًا وتوقف عن إمداد رأسه بالغذاء الكافي كي يفكر بصورة منتظمة. غير أن تلك العبارة الدبقة ظلت عصية على الذهاب وكأن إبرة شعوره قد توقفت عند خدش في أسطوانة أفكاره، فظلت تردد: ليحدث بعدها ما يحدث.. ليحدث بعدها ما يحدث...

قاده الجوع والتعب إلى موقع مزاد المدينة، حيث يعرض كل شيء للبيع بما في ذلك أيامنا الحلوة. لم يتوقف عند باعة الخردة الذين يفككون مفاصل أسرة الحب ليبيعوها قطعة قطعة للعرسان الجدد على أنها جديدة، ولم يعر اهتمامًا لتوسلات بائعي أدوية الطاقة المزيفة وأدوية أخرى تطيل العمر وتجعل المرء ثملاً حتى القيامة بل قادته ترجمته للأشياء التي كانت تتصارع في رأسه إلى تلك الزاوية حيث حدود كرامته.. كان يبحث عن شخص يبيعه جسده المتعب. فكر مع نفسه : "وما الضير لو فعلتها حقا؟".

ها هي الأفكار الدبقة تجذب مثيلاتها فلا تلبث أن تلتصق بجدران رأسه مثل إخطبوط لزج دخل سهوًا سفينة غارقة وعلق فيها. لم يكن أمامه من خيار سوى الانسياق وراءها لتقوده إلى ذلك المدعو (آغا). وقف أمامه دون وجل، كان الجوع قد عرى كل تصنع في كلامه، فنسي أن يخجل ولو للحظة:

- جئت أبيعك جسدي.

كانت جملة قصيرة، فلتت من تلقاء نفسها، وتسربت بسرعة دون أن يتسنى لها الوقت كي تمر بالذاكرة التي أضناها نقص السكر.. تفرس آغا بتفاصيل الرجل النحيل الواقف أمامه. وقال بشيء من اللامبالاة:

- أأربعيني مثلك؟

أراد عبد القادر أن يحتج، أن يقول أنه لم يبلغ الحادية والثلاثين بعد، وأن الزمن.. آخ من الزمن.. لكنه لم يفعل، بل وقف أمام آغا متوخيًا شفقته.

الله يعلم كم كلفه ذلك الموقف، وكم من السنوات مرت قبل أن يتجاوزه.. كان حلم أن يُمحى ذلك اليوم من ذاكرة الوجود يراوده دائمًا، وكان يصلي كي يموت آغا هذا، يموت ببساطة كما يموت الآلاف كل يوم فيتخلص من ظله الثقيل.. ظل يتابعه أينما ذهب ويتوقعه في كل زاوية وكل زقاق وكل شارع. كان ينظر إلى الناس حوله ويحسدهم على نعمة السكينة التي يفتقدها فخلف السكينة تلك تكمن رأس مرفوع وكرامة مصونة، أما هو، أما كرامته، فهي رهينة أبدية بيد آغا ذاك. صحيح أن آغا لم يلمسه، لكن شيئًا ما تحطم في داخله، إحساس غريب هو مزيج من الانكسار والشعور بالعدم لأن أحدهم على الأقل يعرف سره ولأنه مرفوض حتى من شخص مثل آغا...

حتى بعد عدة سنوات من ذلك اليوم، حتى بعد أن احتوته هيئة إنسانية للعمل فيها كمراقب لتوزيع المؤن إثر تدفق النفط من جديد ضمن مذكرة التفاهم مع الأمم المتحدة، لم يستطع أن يمحي صورة ذلك الشبح من ذاكرته... ظل شعور دائم بالخزي يلاحقه من أن آغا لا بد أن وشى بسره وأن الآخرين لا بد ينظرون إليه بتلك النظرة المليئة بالتقزز والشفقة معًا.

رغم ذلك تدرج في العمل حتى حصل على عقد عمل من الدرجة الرابعة في برنامج النفط مقابل الغذاء. كان العمل في تلك الهيئات امتيازًا لا يبلغه الكثيرون في تلك الأيام بسبب الراتب المغري الذي يؤمنه تفوق الدولار على العملة المحلية، لذا كان عبد القادر يشعر بالزهو حين كانت السيارة البيضاء الأنيقة ذات الدفع الرباعي والتي تحمل علم الأمم المتحدة تقله من محل عمله إلى مخازن المواد الغذائية والوكلاء في السوق. صار شخصًا يُحسب له بحيث أن الكثير من الأقرباء والأصدقاء طلبوا مساعدته كي يحصلوا، مثله، على فرصة عمل هناك. خيل إليه أن شبح آغا قد ابتعد فهو أما مات، كما تمنى دائمًا، أو هاجر إلى أوربا، مثله مثل الكثيرين في تلك الأيام.

في الوقت نفسه، واصل عبد القادر تدرجه في العمل حتى صار مسؤولا عن مناقصات توريد المواد الغذائية في منطقته وصار اسمه يثير رهبة لدى المقاولين الذين يستميتون للحصول على عقد توريد الغذاء. كان شبح الماضي قد انحسر أمام إقدامه على الحياة التي راح يقطف من أيامها الكريمة أوراقا خضراء يمسح بها قحط الحصار وأيامه العجاف، وكان محرك فرحه ذاك يمضي في دورانه، ينهل من نسغ الحياة ويدور.. يدور دون توقف ودون أن ينقطع عنه، ولو لحظة، تيار الحظ الذي كان يستمد من النجوم ديمومته. لم يكن في الأفق ما ينبئ بمقدم

مذنب يقطع حياته الجديدة المدهشة ولم يكن هناك كسوف للحظ فوق خط استواء رفاهيته.

لكن، وكما هو قدر المخلوقات وحيدة الحيلة حين توضع في وسط غير وسطها، كان طفيلي عذابه يتربص به، وجده في أحد الأيام، في ظرف على مكتبه، لم يكن ظرفًا مختومًا، كما هي العادة مع المناقصات التي يأتي بها المقاولون إلى مكتبه للفوز بعقد لتوريد الغذاء، بل كان مفتوحًا تفوح منه رائحة نتنة.. كان مارد شقائه قد خرج من قمقم الأيام. تذكر على الفور تلك الأوراق الوسخة التي ناولها إياه آغا، وتذكر كيف أنه رفضها لأنه لم يقدم له خدمة يستحق عليها شيئًا، وكيف أن آغا ربت على كتفه قائلاً له: لا بأس، ها قد لمستك، فخذ أجرتك وامضي! تذكر كيف قبل المبلغ القليل ذاك، وكيف اختفى من أمام آغا ليضيع وسط الزحام.

ست سنوات كانت قد انقضت منذ ذلك الحين، ست سنوات ظن خلالها أنه ضاع وضاعت قصته في زحام الأيام، لكنه لمس أخيرًا طرف الضياع عندما لامست أصابعه الظرف النتن.

بعد عدة سنوات، وحين توقف العمل ببرنامج النفط مقابل الغذاء طفت على السطح قضية الصفقات المشبوهة لكبار مسؤولي الأمم المتحدة، وجرى الحديث عن محاكمات لأقطاب الفساد في البرنامج، لكن أحدًا لم يذكر، ولو بالصدفة، المناقصات التي

كانت ترسي غالبًا على شركة واحدة ومقاول واحد في عقود توريد الغذاء، ذلك لأن الأمر بقي سرًا، مقابل أن يبقى ما حدث بين عبد القادر وآغا طي الكتمان حتى القيامة.

- أكثر.. أكثر.. زدهم أكثر بركة على أرواح الأموات !

صاحت الزوجة متبرمة من أصوات عشرات الساعات التي دأبت على سماعها منذ سنوات. كانت الساعات تدق متعاقبة في محاولة للحاق ببعضها مرتين، مرة في منتصف النهار وأخرى في منتصف الليل. لكنها كانت تخفق دائمًا.. وكما في كل مرة، يقوم الساعاتي العجوز الذي تقاعد منذ أكثر من عشرين عامًا برتبة مفوض شرطة، والذي تفرغ تمامًا لشغفه القديم بالآلات؛ بنصب الساعات المعلقة على جدران مشغله واحدة تلو الأخرى مستخدمًا سلمًا قصيرًا قابلاً للطي كان قد اقتناه مؤخرًا بعد أن سقط من على الطاولة الصغيرة التي دأب على استخدامها إلى أن بليت إحدى القوائم في آخر مرة فكادت أن تتسبب بكسر في ساقه. كان الربح الذي يأتيه من تصليح الساعات متواضعًا، لكنه كافي مع راتب التقاعد لإدامة الحياة مع رفيقة عمره التي تحملت طبعه الحاد وأسفاره طوال سنين الخدمة، وكانت سنوات طويلة بحق بالنسبة لرجل بدأ حياته العسكرية ببنطال زيتوني

قصير، متطوعًا في الشرطة الملكية، ولطالما ارتبط اسم الشرطة الملكية بالمظاهرات والاعتصامات التي كانت تُفض بالقوة والرصاص آنذاك. لكن الحاج أبو فرحان لم يكن يذكر الكثير عن تلك الفترة لأحد، ولا حتى لزوجته .. بالنسبة له كانت فترة الخدمة كشرطي مخابرة فرصة طيبة كي يتعرف على مبادئ الاتصالات ويحفظ عن ظهر قلب شفرة مورس فينفذ إلى أسرار الآلات وعلم الميكانيكا والكهرباء.

خبرته المهنية كانت قد أمدته بعدة جيدة كي يبني بها بيته بيديه بدل استقدام بنائيين وفنيين وكان بيتًا مثاليًا في زمانه ومكانه. لم يغفل الحاج أبو فرحان أية ثغرة تعكر عليه وعلى زوجه صفو حياة رغيدة سعى كي تكون كاملة.. ففي مدينة تغفو على أنهار من المياه الثقيلة التي تُشكل بيئة لتكاثر الذباب والبعوض وغيرها من الحشرات، نجح أبو فرحان في تحصين بيته منها ولم يغفل أن يبني على سطح الدار قفصًا من أسلاك لينعم بنوم هنيء في أماسي الصيف دون أن تزعجه الحشرات. حتى قبل أن تفرض الحكومة غرامة على كل صاحب دار لا يلتزم وضع برميل قمامة أمام الدار بوقت طويل، كان برميل الحاج أبو فرحان الوحيد في الحي وظل يقول دائمًا إن الحكومة سرقت فكرته. غير أن أحدهم زحزح برميل القمامة ذاك ليضعه أمام داره فسجلت البلدية غرامة على الحاج بدل الجار المخالف. جنَّ جنون الحاج أبو فرحان فقرر أن يذهب بنفسه لمقابلة

السيد المحافظ.. أخبروه أن يكتب شكواه في رسالة، فكتب رسالة طويلة يشرح فيها كيف أنه ومنذ أقام الدار وهو يضع برميل قمامة وأنه لم يحصل أن مرَّ يومٌ دون أن يكون هناك برميل قمامة أمام الدار.

وحين قابله السيد المحافظ بعد إلحاح وانتظار، شرح أبو فرحان قصته كلها وطالب الحكومة بأن تعفيه من دفع الغرامة. شرح السيد المحافظ لأبي فرحان استحالة العودة عن قرار الغرامة، وأمام إصرار الأخير على موقفه، مدَّ المحافظ يده إلى جيب سترته وأخرج بضعة أوراق نقدية، عدَّ منها خمسين، هي قيمة الغرامة، وأعطاها لأبي فرحان الذي أخذها دون تردد.

ظلت الحياة بالنسبة لأبي فرحان، مثل الساعة، تبدأ حيث تنتهي وتنتهي حيث تبدأ. لذا فأن العوارض الصحية التي تعرض لها في النصف الثاني من عمره لم تكن في الواقع سوى محطات يغادرها بسلام ليعود إلى ساعاته ومشغله. كان قد خبر مشاكل القلب على مدى أكثر من ثلاثين عامًا وسافر إلى بلدان عدة طلبًا للعلاج، وكان يعود في كل مرة أكثر عزمًا على المضي في معرفة أسرار الآلات، إذ لطالما أدهشته ساعات المدن الكبيرة التي يزورها.. لطالما تأمل في سرِّ بقائها صامدة في أبراجها العالية دون أن تخطئ الحساب، ولطالما ودَّ لو كان هو من قام بتصميمها أو شارك على الأقل في تصميمها.

وحين أجروا له عملية دقيقة فكوا فيها اشتباك وعائين وسحبوا دمًا متجلطًا من كاسة رأسه، ظن الكثيرون أن ساعة أبو فرحان ستتوقف لا محالة، وأن عقاربها لن تبدأ مرة أخرى من حيث انتهت، لكنه نجى. لم تخلف العملية سوى مضاعفات بسيطة ما لبثت أن تلاشت مع الوقت. كان أخطر تلك المضاعفات يوم قرر أبو فرحان الخروج لأول مرة إلى الحياة بعد أشهر من العملية.. كان قد تعافى من مشكلة اللثغ بالكلمات وبدت حركاته طبيعية، غير أنه عاد إلى المنزل وهو يتحدث لغة أخرى غير العربية.. كان قد التقى في مشواره الأول بعد الأزمة بصديق قديم من سنوات الخدمة في كردستان، فتحدثا بالكردية، وكان أبو فرحان يتقن التحدث بها. استرسلا في سرد ذكريات سنوات طويلة قضياها معًا في مناطق بعيدة في أقصى الشمال، وعندما قفل عائدًا إلى المنزل كان لا يزال يفكر بتلك الذكريات وبالحديث الشيق مع رفيق قديم ولم يدر بخلده أن هناك خطأ ما إلى أن دخل المنزل ليحدث زوجته وكنته وابنه وأحفاده بما رآه في تجواله بالمدينة.. حدثهم بالكردية وأجابهم بالكردية ولم تنفع المحاولات لجعله يتحدث العربية ثانية..

مضت أيام عدة قبل أن يستيقظ ذات صباح ويتحدث بالعربية لأنهم أعادوا نصبه كما الساعات، في حُلم.. أخبروه أيضًا أن لا يلتقي بكردي مرةً أخرى أو أن يصمت.. هؤلاء كانوا أصدقاء

اعتاد زياراتهم في أحلامه وقت الأزمات، لكنهم بالغوا في المرة الأخيرة حين أعطوه ملكة فريدة في خريف العمر.. كان ذلك في منتصف نهار ذلك اليوم، حين دقت الساعات المعلقة على جدران المشغل مرة واحدة لأول مرة منذ أكثر من عشرين عامًا.. انصت أبو فرحان حتى نهاية الدقات الاثنتي عشرة قبل أن ينفجر بضحكة هستيرية، متواصلة وقوية.. أراد أن يقطعها كي تلتقط رئتاه بعض الهواء، كي يتنفس.. لكن عبثًا..

انتحار غير مقصود

لو أنه لم يفلت ذلك الخيط الواهي، لو أنه لم يترك البالون المليء بالهليوم يجنح بعيدًا ليعبر حدود الجاذبية، لكان سرد لنا ما دار في أحلامه، ولأخبرنا بما جال في باله وهو يطفئ حاسوبه بعد أن ملَّ العمل حتى ساعة متأخرة من ليلته الأخيرة تلك. فمنذ وطأت قدماه أرض الشركة وهو ينسخ أيامه، يومًا بعد يوم في دورة عذاب تبدأ من الساعة الثامنة صباحا وتستمر حتى يختفي آخر أثر للنهار من الكوة الصغيرة لمكتبه التي حوّرت إلى شباك مشوه منذ تحول البناء من ثكنة عسكرية إلى مقر شركة يملكها رجل ظل يفخر بأنه كان يبيع السكائر على الرصيف قبل طفرة الدولار التاريخية.

لو أنه لم يؤد طقوس آخر النهار ليحارب زحف الخريف، لشهد معنا النهاية المستحيلة لقصة الزمن ولأكتشف على الأقل خيانة أحلامه وتنكرها له، هو الذي أطفأ شمسه بسواد عينيها، لكنه آثر أن يرى الحياة من وجهة نظر مقلوبة فأستوقفه قانونها الذي لا يهادن وسقط من على الكرسي الدوّار حين خرج خط حياته المار بقاعدة استناده من مركز ثقله وحين انزلقت

العجلات الصغيرة تحت وطأة جسمه المنتصب فوق رأسه ليهوي مكسور الجناح فوق أرض المكتب..
لو أنه أمسك بطرف ذلك الخيط وشده بقبضته في ليلة خفارته تلك، لعرف على الأقل مقدار غبائه وهو يلهث وراء وفائها المستحيل، ولأكتشف سرَّ صمتها الدائم ونظرتها الهائمة البعيدة منذ غيرت دينها سرًا واعتنقت السادية طريقًا لخلاص روحها من عذابات قسم الوفاء الأبدي..

لو أنه شهد صباحًا آخر؛ لكلَّمته قبل ظهر ذلك اليوم ولطلبت منه موعدًا طارئًا لتصارحه بنهاية كذبتها التي مررتها عليه لأكثر من عام، ولحددت له حديقة النادي الاجتماعي مكانًا لآخر مواعيدها لتذكره أنه ليس سوى موظف بسيط في شركة متواضعة.. كانت ستخبره أنها قررت فجأة ودون مقدمات أن تقطع أحلامه، وكانت ستتركه يُشنق على أرجوحة شقائه وهو يتوسل أن تعطيه توضيحًا، وإلا فأنه سيرمي بنفسه تحت عجلات أية سيارة مارة في الشارع المسرع، وكانت ستتركه يخطو عدة خطوات باتجاه الشارع وهي تهز نفسها على الأرجوحة وتتنكر له...

لو أنه شهد أيامًا أخرى بعد ليلته تلك، لكان رمي بنفسه تحت وطأة العمل هربًا من ذكراها، ولأحرق الساعات وهو يحسب مدخول الشركة وميزانيتها منذ تأسست، ولتطوع بإخلاص ليعد

النقد الموجود في خزائنها، ورقة ورقة، مشككًا بمصداقية آلة عد النقود الموجودة في مكتبه، ولأعاد إدخال البيانات في حاسوبه مرات ومرات حتى تتحول أحلامه إلى أرقام فيسحق عطر الوردة القرمزية المخبأة في قلبه. وحين تنتابه نوبات الوجد، كان سيلجأ إلى صديق وينثر راتبه على موائد الليل ويعب الشراب وهو يستمع إلى النجوم تحكي طالعه وتقرأ مستقبله وتستنزف دنانيره وتبتزه وتجعله مدمنًا هائمًا يدور على أبواب قُراء الطالع والمنجمين وصانعي معجزات المحبة.. وكان سيتورط في النساء فيحن إلى اللواتي سبق له أن رفضهن وسيدس أنفه حد العظمة، بل حد الحاجبين، في أمورهن فينزلق مع أذكاهن، تلك التي تعرف كيف تستغل عوزه، فتجره مثل ثور إلى فراشها الوردي في الأوقات التي يغيب فيها زوجها وستروضه مثلما فعلت بغي أوروك بـ"أنكيدو". لكنه سيحن إلى أيام القبلات الأولى، وسيؤلمه أنه لم يجرب ذلك مع حبه، وسيؤنب نفسه لأنه لم يكن مستعجلاً كفاية ليلاحظ كيف أنها كانت تعبد له الطريق إلى سهول عدن الخصبة وكيف كانت تفتح قلوعها لاستقباله كلما خلا بها في الأنحاء القصية من حديقة (الحرية) وغيرها من الأماكن التي تقترحها هي دائمًا..

لو أنه تريث قليلاً، لشهد عامين آخرين، ولأنبه ضميره لأنه تجرأ على خيانتها قبل أن يلتقيها.. كان سيضرب رأسه بجدران

وشوارع وساحات مدينته، وكان سيجلد روحه ألف جلدة كل يوم علَّ توبته تُقبل، فهو الخاطئ أولاً وأخيرًا، وهي أميرة الصمت التي لا تملك تفسيرًا لقراراتها الخطيرة، وهي المفرطة التهذيب التي لا تريد جرحه فتحمله وزر أخطائه وعدم أهليته لها.

عامان طويلان كانا سيمضيان وهو يهدهد نفسه ليقتل جوعًا شرسًا تفاقم في خلاياه وعطن مثل مياه راكدة شربت منها طحالب الزمن.. كان سيكتشف سر تحول الوردة القرمزية إلى سوداء كريهة مثل بقع العفونة على سطح مكتبه، وكان سيفقد اهتمامه بها أخيرًا وهو يغسل يديه بعد غداء الندم في مطعم (السلام)، اقتراحها هي ليحل السلام بينهما، وكان سينسحب متذرعًا بموعد عمل حين تدعوه ليحبها في مكان تقترحه هي طبعا؛ لأنه سيكون يومًا مصادفًا للأول من محرم ولن يتورط أكثر في المعصية. ستُطلق روحه فرحته الضالة تلك يوم تتكشف له أسرار صمتها ونظرتها الهائمة البعيدة، وسيكون عليه أن يسرع ليكتشف عمره المؤجل حين يتحرر من قسمه أن يبقى لها ما دامت لنفسها. سيجر جسده، إلى مروضته، انتقامًا، وسيواصل ذلك حتى يدخل عليهما الزوج الغاضب فيفرغ مسدسه في عريهما على فراش الخزي الوردي.

حسنًا فعل إذن، حين أفلت خيط حياته في ليلة خفارته تلك.

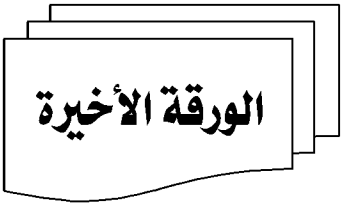

خلط أحدهم أوراق اللعب وشرع يوزعها بخفة على الطاولة المستديرة، تناول الرجال حصصهم وهموا بترتيبها بمهارة وحرص ليخفوها عن أعين بعضهم البعض.

كانت يده المشوهة قد فقدت القدرة على فعل أي شيء آخر سوى الإمساك بأوراق اللعب في كل ليلة منذ الحادث الذي أودى بعائلته...

رمى ورقة وسحب أخرى.. سرح بأفكاره بعيدًا إلى أيام شقائه الأولى، تذكر مواعيدها الأولى.. كانت عطشى لأمطار ربيع طويل ولامتداد أخضر ولزرقة سماء صافية غير موجودة إلا في الواقع الافتراضي لخرائط نشرات الأنواء الجوية، وكانت تتساءل دائمًا: كيف يمكن للورد العيش في هذه المدينة المتربة؟ وكيف يمكن لقصص الحب أن تزدهر في درجات حرارة تتجاوز الخمسين مئوية؟.. قتلها صيفٌ طويلٌ ومتربٌ وهي تحاول إقناعه بالهرب معًا إلى بلاد غير مغضوب عليها.. قتلتها نوبات الربو وحولت رئتها إلى ما يشبه النباتات الشوكية اليابسة.. أسقط أوراقه من يديه، خسر الدور، خسرها..

خلط أحدهم أوراق اللعب مرة أخرى، وبدأ دورٌ جديد...
مضت عشر سنوات، قبل أن ينهض من كبوته الأولى، استنفذته التجربة فتحول بثقل آلامه إلى العمل هربًا من ذكرى رحيلها المأساوي. سكنت خرزة الحياة في أعماقه وركدت كمرساةٍ صدأة مغروسة في قعر المحيط، بينما كان عمره يترشح عبر الأيام عديمة اللون والطعم والرائحة...

سحب ورقة... كانت هي امرأة أخرى لكنها تشبه كثيرًا حبيبته الأولى حدَّ أنه ظنها عادت إلى الحياة..
أسقط أوراقه من يديه، وبدأ شبح الإفلاس يلوح في الأفق، غير أن رغبته بالبدء من جديد كانت أكبر من أي شيء.. صار له بيت صغير، وكان قد بدأ يدخر مالاً، كان يضع الدينار فوق الدينار ليقضي على البؤس الذي فقد بسببه حبه الكبير... كانت أجمل ما حصل له على الإطلاق، وإذا كان القدر قد سرقها منه فلأنه اختار أن يحصل عليها في النهاية. أخبرته مرة بأن هناك أخرى تشبهها وبأنه سوف لن يعاني إذا ما رحلت عنه يومًا.

رمى بورقة... وردته إشارات قيامتها حين أخبره البعض أنهم رأوها في المدينة، لم يأبه لكلامهم، كان يؤمن أن لا واحدة تشبهها على الإطلاق وبأنها لا بد أن تكون قد خُلقت لتكون استثناءً..

سحب ورقة جديدة.. لم يسألها أن تضع عدسات لاصقة كي تراه دائمًا بلون الربيع، ولم يطلب منها أن تغير تسريحة شعرها كي يكون متموجًا تعلكه ريح تشرين كما أحبه دائمًا، فهي صورة طبق الأصل عن الأصل، ليس في شكلها فحسب؛ بل في ذلك الإحساس الغامض الذي لا يمكن أن يخطئ، في تلك النظرة المليئة بالأسرار وفي الهالة المصاحبة لها وهي تعبر شارع حياته لتلتقيه في مواعيدهما الأولى... كانت هي ورقته التي لا يمكن إلا أن يربحها، لم يكن أمامه من خيار سوى أن يسرع في انتزاع السهم من الحمامة الأخيرة التي حطت على كفه كي يُبطِل سحر العجوز التي غيبت حبيبته ورمتها في الوادي السحيق.

أسقط أوراقه مرةً واحدة وقامر بحياته كلها: هي أو لا شيء على الإطلاق.. لم ينتظر لتتوسل أن يغطيها من أمطار الغبار، ولم ينتظر لتعطش حتى يسقيها، بل مضى بها إلى قارة بعيدة حيث اكتشف هناك سرَّ عينيها المراوغتين، فتارة بلون السماء المفتوحة النقية، وتارة أخرى بلون الامتداد اللامتناهي للغابات الرطبة.. هناك حيث ينشطر الحب ويتكاثر كما تتكاثر الطحالب في البرك والمستنقعات، ولدت له فلة بعينين مراوغتين تمامًا مثل عيني أمها.. (حدث أن أحبَّ القمر صبية خضراء العينين... كان يلتقيها حين ينام الناس، يبقى معها حتى الفجر، تزوجا

وأنجبا فتاة ورثت عينيَّ أمها وحسن القمر. وحين بلغت الرابعة عشر كان عليها أن تختار بين أن تكون أرضية كأمها، أو تكون قمرًا في السماء كأبيها.. أخيرًا اختارت أن تكون قمرًا بدل أبيها فبرزت مشكلة عينيها الخضراوين، إذ لم يعتد الناس على قمر بعينين خضراوين).

أعيد خلط أوراق اللعب مرة أخرى، ووزعت بطاقات جديدة لجولة جديدة..

كلُّ شيء كان مكتوبًا منذ البداية، وكان ذلك أقصى ما يمكن للقدر أن يمنحه.. أن يهبه فرصة أخرى كي تتوقف روحه عن النحيب لأنه لم يكن مستعجلاً كفاية ليقطف وردة الرمان تلك. كل شيء كان مكتوبًا ليعود وحيدًا، كانت سيارة شقائه قد تحولت إلى تنين ينفث اللهب.. انتزعوه من آتون النار وتركوا زوجته وطفلته تحترقان .. كانت إجازة القدر قد انتهت وكان لابد لها أن تعود من حيث أتت تاركة وشمًا من نار في روحه وجسده... غير أن أوراقه كانت لا تزال تُخلط في بُعد آخر..

سحب ورقة جديدة، همَّ بضمها إلى المجموعة التي بين يديه دون اهتمام، كان قد ملَّ المحاولة بعد أن أفلس تمامًا، لم يعد عنده ما يراهن عليه.. لم يعد هناك ما يلعب عليه سوى هذه الورقة.

عندما نقلوه إلى المستشفى، كانت ألف سنة من الدهشة قد تجمدت، إلى الأبد، في مقلتيه وفي شفتيه وفي عضلات وجهه كلها، وكانت يده اليسرى مبسوطة ومسترخية وكأنها رمت للتو أوراق الآس والديناري، بينما تطلب الأمر جهدًا كي ينتزعوا من أصابع قبضته اليمنى المضمومة بقوة ورقة الجوكر الرابحة.

طرف المستحيل الآخر

أفاق في الصباح منتشيًا ويكاد لا يصدق كيف يقفز عنوان بريد إلكتروني غريب إلى حلمه. التفت إلى الطاولة الصغيرة بالقرب من رأسه وتناول ورقة وقلمًا ليكتب العنوان.. كان الحلم قد فقد بريقه ليصبح بضع كلمات سُطرت على عجل على ورقةٍ صغيرة. تغلبت على تلك الأفكار فكرة برتقالية بدلت طعم الصدأ الذي كان قد ترسب في عظامه وطردت النكد الذي تعود أن يسحق به كل فكرة طرية منذ تجاوز الثلاثين. فكر أن يبعث برسالة عبر الإنترنت إلى (حنان) وهو الاسم الذي كان يحمله العنوان، الأمر الذي أثار دمه وحرك خرزة الحياة الراكدة منذ زمن في قاع نفسه. كتب لها متسائلاً عن السبب وراء ظهور عنوانها في حلمه دون أن يكون على معرفة بها مضيفًا إنه ينتظر ردها.

لم يمض وقت طويل حتى وردته إشارة بأن الرسالة قد تم استلامها، أي أن العنوان موجود وأن هناك شخصًا يحمله!

غير أن انتظاره للرد طال، مما دفعه إلى كتابة رسالة أخرى، لكنه تلقى نفس الإشارة التي تلقاها في المرة الأولى..
أدمن الكتابة وأصبح يبعث لها رسالة واحدة على الأقل كل يوم، وربما كان من سوء حظه أن تكون صاحبة العنوان أنثى، فربما فكرت بأنه يتحرش بها وأنه حصل على عنوانها من مكان ما ويريد أن يبرر ذلك بحلم مزعوم.. أرعبته الفكرة حد أنه كتب لها رسالة طويلة أوضح فيها أنه مندهش ولا يدري ماذا يفعل وسألها أن تكون في محله فماذا كانت لتفعل، وبأن اقتحامه لهدوئها عبر تلك الرسائل سبقه اقتحامها لأحلامه وبأن هدفه كله هو معرفة المغزى من ذلك كله... غير أن صمتها استمر.

لم تفل إرادته في السعي لمعرفة الحقيقة، رغم أن وسيلته الوحيدة كانت الاستمرار في الكتابة إليها دون تلقي أي رد، وكان الأمل يراوده من أنها لا بد أن تكون في مكان ما من هذا العالم وبأنها تقرأ كل رسائله.
حاول كذلك أن يتصل بها على برنامج المراسل الذي يفترض أن يكون فعالاً ليعرف منه أوقات ظهورها على شبكة الإنترنت، لكنه لم يفلح لسوء الحظ رغم أنه كمن لها في كل الأوقات تقريبا مراعاة لاحتمالات البعد الجغرافي والتوقيت، وليسد كل ثغرات تأنيب النفس.

مضت أشهر قبل أن يتوقف عن الكتابة إليها وقبل أن يتخلى حتى عن انتظار الرد، حين دخل مكتبه في العمل ليجد بريده الإلكتروني يؤشر ورود رسالة من حنان.
فتح الرسالة وأخذت عيناه تتنقلان بسرعة بين الأسطر ليشبع فضولاً أكثر منه شوقًا، كانت الرسالة مقتضبة، وتقول ببساطة إنها استسلمت أخيرًا لإلحاح ضميرها فأجابت على رسائله التي كانت تقرأها حتى باتت تنتظر وصولها، وبأنها لم تكن تدري ماذا تفعل، أتجيب عليها أم لا، لكنها ومنذ توقفت رسائله اعتراها قلق غريب، فقررت أن ترد عليه.

لم يعاتبها على تأخر الرد، بل كتب يسرد لها كل شيء جال بخاطره لحظتها، فهي الرسالة التي يجب أن تتضمن كل شيء، فأما أن تحقق هدفها أو أن تفشل فيفقد التواصل معها إلى الأبد. لقد أنسته الرسالة المغزى وراء ذلك الحلم، فلم يعد يطمع بمعرفة شيء سوى التواصل معها والتعرف عليها أكثر. شيء ما حرك تلك الخرزة الراكدة منذ الأزل ورفع المرساة التي أكلها الصدأ من أعماق العدم، كان يريد أن يفعل أي شيء ليطيل عمر ذلك التواصل الذي ما انفك يبحث عنه طيلة عمره دون وعي منه. كتب لها أنه لن يحاول إقناعها بحقيقة الحلم، لأن ما يحصل لهما هو حلم آخر، وتوسل أن تجعل هذا الحلم يستمر، وأخبرها أيضًا عن نفسه عله يفلح في جرها عن الحديث عن نفسها

فيحصل على خيوط تقوده في النهاية إلى مغزى ظهورها في حياته. كتب رسالته بذكاء وأودع فيها أمنية بحجم العمر بأن ترد عليه أسرع من المرة السابقة.

جاء ردها هذه المرة بعد ساعات قليلة، أخبرته أنها قررت الرد بدافع الفضول لكنها اعترفت أنها أحبت صراحته في الحديث عن نفسه، وتساءلت إلى أي مدى يمكن للمرء الوثوق بشخص لم يسبق أن تعرف عليه، لكن الأهم من ذلك كله أنها اقترحت عليه أن تتواصل معه على برنامج المراسل.

جرت الأمور بأسرع مما يستوعبه رأساهما، فتحدثا مساء نفس اليوم مباشرة.. تحدثا في بادئ الأمر بالكلمات، لكنهما سرعان ما فطنا إلى أن بالإمكان التحدث مباشرة باستعمال اللاقطات. حاول هو أن يتحدث بنفس جرأة رسائله، لكنه اكتشف كم تخفي الكلمات خلفها من ضعف وتردد.. ودَّ لو أنها تسمح له بالكتابة فقط، لكنه لم يجرؤ على اقتراح ذلك، ففي النهاية كان سماع صوتها هو غاية طالما حلم بها.

تحدثا طويلاً، واكتشف كل منهما، وهو يستمع إلى الثاني، أنه يدرك الآخر ويعرف أسراره حتى قبل أن ينطق بها. ذكَّر كل منهما الآخر بطفولة بعيدة.. تحدثا عن الزوارق التي كانا يتباريان بصناعتها من ورق الدفاتر المدرسية، وتشممما سوية رائحة الممحاة الملونة التي كانا يمسحان بها ظهر الرحلة

المدرسية الخشن كي تصغر بسرعة فيقتنع الأهل أخيرًا باستبدالها بممحاة جديدة تفوح بعطر الفراولة.. رددا معًا الأناشيد المدرسية متعثرين بالأخطاء ذاتها التي كانا يتعثران بها أيام المدرسة، ولعقا السكر من ذاكرة الأيام وهما يذكران بعضهما بحليب التغذية المدرسية وعصير (يافا) وحلوى السمسمية. تذكرا أيضًا صفارات الإنذار وغارات الحرب الأولى والرسائل الغرامية التي كانت تُصادر وتجمع فوق مكتب الست المديرة.. استرسلا في سرد ذكريات لم يسبق لأي منهما تذكرها بهذا الصفاء.. كانا ينهلان من ذاكرة مشتركة ويكمل أحدهما للآخر النصف المبتور من القصة ذاتها.

لقد اكتشفها مجددًا، تلك الصغيرة ذات الجديلة الذهبية، التي كتبت له يومًا على رحلته (أحبك).. يومها لم يكن يعرف كيف يتصرف، أيقول أحبك أيضًا ؟ لكنه اكتفى بكتابة اسمها الثلاثي واسم عائلتها، بأحسن ما يستطيع تلميذ صغير أن يفعل، في كراس صغير وأخفاه تحت وسادته كي لا ينساه وكي يتسنى له أن يجدها حين يكبر. كان هو إذن فارسها الخجول، المتردد، الذي لم يكن على عجلة من أمره، والذي انتظرت رده طيلة ثمان وعشرين عامًا حتى ظنت أنه مات في واحدة من تلك الحروب الكثيرة التي خضناها. تحدثا بطول الأعوام الضائعة، وخلقا ذكريات جديدة، حتى أيقنا أنهما يحلمان حلمًا مشتركًا لن ينتهي إلى أن تدق الساعة على طاولة الأزل.

ـ منتصف النهار في استوديوهاتنا.

يقول الراديو الصغير الراقد بجوار آنسة لا يهمها موعد الغداء إلا لكي تنبه زملاءها الأربعة الذين يقاسمونها غرفة القسم في الدائرة.

يتزاحمون مثل حشود النمل ويصطفون على طول الممر المؤدي إلى المطبخ حاملين أواني تدور في فراغها ملاعق ملطخة بالرغبات. منتظرين دورهم عند عتبة باب المطبخ حيث تواجههم دائمًا مرآة مشوهة تفضح نياتهم المبيتة قبل أن يغرف عجوز قصير يرتدي قبعة بيضاء الطعام في أوانيهم المتزاحمة.

سيهزون رؤوسهم ندمًا، دائمًا؛ لأنهم أهملوا تحذيرات الآنسة المضربة عن تناول طعام الطباخ العريق الذي خدم في مطاعم القصر الملكي ومطاعم خارج البلاد قبل أن يُحال على التقاعد ويرضى بالعمل في دائرة بسيطة دون مجد سوى إنكليزية طليقة تعود أن يفكر بها بصوت مسموع، وسوف يعتذرون منها كلما عثروا في الرز المغسول بمشيئة كهلة على شعرة ضالة أو

مخلوقات وهوام تسبح في حساء الطماطة الباهت... ستروي لهم قصص اكتشافاتها المبكرة في المطبخ وتنقيباتها التاريخية في علبة السكر التي يغرف منها الجميع بحرية في أكواب الشاي بعد الغداء، وستحرجهم وهم يتناولون طعامهم بسرد تفاصيل اكتشافها كريات سوداء صلبة في سكر الشاي، وتبالغ أكثر فتتحدث عن تجمعات كروية سوداء ومستعمرات مزدحمة من فضلات الفئران، جمعت في مرة عينات منها على ورقة بيضاء ووضعتها فوق مكتب المدير.

وفي المرات النادرة التي لا يجد فيها زملاء القسم أثرًا لشعرة فضية أو مخلوق غريق في طعامهم، سيتشجعون ويقدمون أطباقهم أمامها فخورين بنجاح نظريتهم التي تبرر دائمًا أي خلل في عمل الطاهي بصدفة غير مقصودة. لكنها ستذكرهم أيضًا بالماء الذي يشربه الجميع في الدائرة مطمئنين لنظافته وصفاء لونه حتى اليوم الذي اكتشفوا فيه قطة غريقة في خزان الماء العلوي الكبير، فاتضحت أسباب موجة الأمراض التي انتشرت بين صفوف الموظفين.. ستذكرهم أيضًا بأنه لا يوجد مجنون في العالم يحرم نفسه من الماء والطعام ويفقد كيلوات ثمينة من وزنه لمجرد أوهام، وستعزز حججها بدلائل على جنون الطباخ وجنوحه عن الواقع وهو يحدث نفسه في ساعات عزلته الطويلة، أو يحاور رموز مجده الزائل ويتحسر على قدرته

الذليلة في عالم لم يعد يعر اهتمامًا لمواهبه السحرية وللمساته الفولكلورية.. ستكرر لهم دائمًا دروسها وستحثهم في خطب نارية على الصوم.

لكنهم أوقعوا بها يومًا حين خسرت رهانًا تافهًا ثمنه تناول وجبة من يد (طاهي الطهاة) كما تعود (هو) أن يطلق على نفسه في خيالاته الملكية، ولم تنفع توسلاتها في تبديل ثمن الرهان أو تخفيفه، لكنها أقنعتهم في النهاية بتأجيل الوليمة إلى يوم ميلادها: لتكون بداية جديدة مع العم صالح الطباخ، كما قالت (هي) محاولة إضفاء شيء من الرومانسية على الفكرة الشيطانية التي لمعت في رأسها فجأة .. فعلت ذلك بأمل أن تمرر عليهم الموعد دون وليمة سوى وليمة ميلادها. أرادت أن تبهرهم بكعكة الميلاد وبأطباق الحلوى والفاكهة لينسوا صالح والرهان. لكن رهانها خسر عندما دعا العم صالح نفسه إلى الحفلة حاملاً هدية الميلاد في طبق كبير أقسم أنه أحسن ما طهاه طيلة (ثلاثة وأربعين) سنة من الخدمة.. حاصرها بدموعه وتوسلاته قبل أن توافق على إنهاء إضرابها وتقتسم معه ومع زملاء القسم: الطبق- الهدية، وتتوجه طباخًا ملكيًا.

كان ذلك قبل إطفاء شموع الميلاد في وقت ما بعد الثانية عشرة من نهار ذلك اليوم، عندما تلوى خمسون موظفًا فوق مكاتبهم من ألم غامض مزق أحشاءهم، في نفس الوقت الذي كان فيه

طباخ الدائرة يذرع الممر الطويل الذي تفتح فيه غرف الأقسام وهو يصيح بصوت تقطعه ضحكات مجنونة وتخنقه حشرجة الاحتضار:

- هنيئًا .. هنيئًا .. أصحاب الجلالة

كما في نهاية كل يوم، وعند استعلامات الشركة حيث يوقع تاريخ الانصراف مقابل توقيع الحضور. كان عليه أن يقبل، مرغمًا، علكة أخرى من موظف الاستعلامات.. يشكره على مضض ويطبق بقبضته على العلكة ليرميها في رف السيارة؛ ذلك لأنه كان يخشى أن يراقبه وهو يرميها في أقرب سلة مهملات أو عند الزاوية حيث يستدير ليستقل سيارته.

امتلأت سيارته بالعلكات التي يقدمها له موظف الاستعلامات كل يوم ولم تنفع محاولات الاعتذار عن قبولها، وكان قد علم أن بقية الزملاء يقبلون علكة السيد عبد الرزاق التي يقدمها لهم بطيب خاطر ويمضغونها بطيب خاطر أيضًا، وحده هو كان يرميها في رف السيارة دون اهتمام حتى تكدست لديه العشرات فلا وقت لديه ليصفي تلك العلكات الملونة التي تزدحم بها سيارته والتي ضاق بها كلما حاول أن يجد مكانًا للهاتف الجوال في رف السيارة أثناء القيادة.

يا لهذه الحياة التعيسة ! فهو ينهض في السادسة والنصف كل صباح، يتناول؛ أو لا يتناول؛ فطوره، يرتدي على عجل نفس ملابس اليوم السابق، نفس الجوربين العتيقين ونفس الجينز ونفس القميص، ويأخذ معه نفس التكشيرة، ليتوجه إلى عمله، حيث يجد نفسه مرغمًا على تحمل ثورة نفسه كلما اعترضت يومه مفاجأة من تلك المفاجآت، وهي كلها غير سارة، ومفاجئة مثل ذبحة أو سكتة. سيجد نفسه يقاوم تكشيرة روحه المرتسمة منذ الأزل على محياه، تكشيرة المُحاسِب، لأنه سبق أن تلقى تأنيبًا من الإدارة كونه لا يحسن الابتسام في حضرة السيد المدير صاحب الضحكة الهستيرية الذي يدخل دون استئذان ليقيس مقدار المرح على وجوه موظفيه، ولأنه أيضًا مُعرض عن حضور حفلات الميلاد الأسبوعية التي تقام في القاعة الكبيرة بحضور الجميع سواه.

هكذا تمضي الأيام، تسحق الأرقام المرح في روحه، تتكاثر مثل القُمل، تنشطر وتنمو بجنون، فتحيل أحلامه إلى استمارة بيانات أو شريط لا نهاية له من مراتب وأصفار، لكنها أرقام على أية حال، لا شيء سوى أرقام. ومثل حامل الأثقال، تمضي الأرقام معه إلى كل مكان، فهي معلقة في سلسلة مفاتيحه، يأخذها معه إلى كل مكان. تمزق جيب البنطال بطرفها الحاد المدبب، وتحدث فيه انتفاخًا مخجلاً يصبح الحديث عن القيافة معها ضربًا من المستحيل.. معه في مجالس العزاء وفي حفلات الزواج التي

يحضرها مكرها، في المرحاض، المكان الوحيد الذي يكون فيه لنفسه، في المآدب التي يحضرها مكرهًا أيضًا.. تلك هي مفاتيح خزنة الأوراق النقدية، الترجمة الملموسة للأرقام التي يعدها بلا هوادة من الصباح وحتى اختفاء آخر أثر للنهار.

يا لها من حياة تعيسة.. ترى هل توقف مرة ليدرك أن للحياة إيقاعًا آخر في الخارج؟ فهو لا يجد وقتًا كي يستطعم الحياة، كي يتنفس، كي يأخذ قدحًا من الماء أو كوبًا من الشاي..

- أي شيء.. أي شيء.. لا يهم..

يجيب دائمًا كلما سألوه ماذا يحب أن يأكل للغداء. يتناول شطيرة فوق مكتبه، لا يدري ما فيها، يبتلعها دون ماء أو شراب. بينما تلعب أصابعه على مفاتيح الحاسوب وتطارد عيناه المتعبتان الأرقام في قائمة البيانات.

ظلَّ يفكر في تعاسته وهو يقود سيارته عائدًا إلى البيت بعد نهاية يوم تعيس آخر.. أصدر الهاتف الجوَّال رنينًا قصيرًا، كانت قد وصلته رسالة قطعت أفكاره.. تنحى قليلاً كي يخرج الهاتف من جيب بنطاله مع حزام الأمان الذي كان يعيقه قليلاً.. كانت رسالة من تلك الرسائل على أية حال.. أغلق الهاتف ورمى به في رف السيارة.. تنبه إلى عشرات العلكات الملونة الصغيرة التي ملأت الرف بحيث تعذر أن يجد مكانًا لهاتفه.. ماذا يفعل بكل تلك العلكات المتكدسة في رف سيارته ؟ أيرميها دون هم

من النافذة؟ وما الضير لو فعلها حقًا؟ تذكر عبد الرزاق المسكين وابتسامته الخجولة وهو يقدم له يوميًا تلك العلكات، شعر كما في كل مرة بضميره يؤنبه.. لم يسبق له أن تناول ولا واحدة منها، فهي حتمًا من النوع الرخيص كي يستطيع موظف بسيط مثل عبد الرزاق شراءها وتوزيعها بهذا السخاء على موظفي الشركة.. قطع أفكاره زعيق الكوابح لتمنع اصطدام سيارته بشاحنة أبصرها بالكاد.. تناثرت العلكات تحت قدميه وعلى الأرضية.. تبادل الشتائم مع سائق الشاحنة لأن الشاحنة توقفت فجأة دون سابق إشارة.. التقط حفنة من تلك العلكات المتناثرة على أرضية السيارة، ترجل ورماها في وجه الريح. أعاد الكرة فالتقط حفنة أخرى ورماها أيضًا، رماها كلها.. الآن أصبح بإمكانه أن يضع الهاتف في المكان الذي أحب دائمًا، رفع الهاتف من على الأرضية حيث سقط مع العلكات، وحين وضعه في الرف تعرفت يده على العلكة الأخيرة المتبقية في الزاوية البعيدة..أراد أن يرميها هي الأخرى لكنه كان قد انطلق، وبدلاً من ذلك، رمى بها في فمه دون وعي، مضغها مع أفكاره، تذوقها لأول مرة.. كانت حلوة جدًا، ربما حرارة الجو قد أثرت في جودة العلكة، ربما الشمس أو ربما كانت مبالغة من الشركة التي صنعتها.. لكنها كانت حلوة المذاق بشكل لا يصدق.. حلوة جدًا لدرجة ودَّ لو استطاع أن يبصقها من فمه.. كانت حلوة جدًا إلى درجة أنه شهق بها فسافرت به بعيدًا بعيدًا..

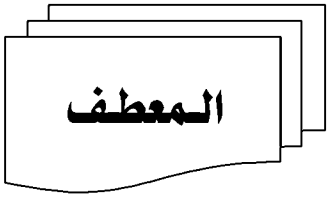

المعطف

السماء تبرق وترعد.. تتوعد بالمزيد، والشوارع خالية، لم يكن ثمة أحد غيره هو.. سائق سيارة أجرة عجوز كان في طريقه لينام. كانت مفاجأة غير سارة أن يلتقي السائق براكب جديد في وقت متأخر كهذا. توقف قبل أن تمد يدها، بدت له تحت مصابيح سيارته القديمة فتاة حسناء ترتجف هلعًا وبردًا تحت الزوابع والأمطار، فتح لها الباب ودعاها للصعود .. لم يشأ أن يسأل عن وجهتها، بدلاً من ذلك خلع معطفه الصوفي المشبع بدخان لفائف التبغ ورمى به على كتفيها.. تشبثت بالمعطف بقوة وراحت تلملم وتخبئ جسدها فيه، لكنها كانت ترتجف.. ترتجف بقوة والطريق أصبح أكثر طولاً بسبب مياه الأمطار التي شكَّلت بحيرات صغيرة لا تجازف بخوضها أية سيارة.

المعطف الصوفي لم يعد كافيًا ليوقف هلع جسدها المبتل، أشعل السائق لفافة تبغ وأخذ يزفر دخانها الدافئ، مدت يدها إلى السائق، ففهم أنها تريد لفافة تدخنها... تمامًا كما يفعل الرجال، راحت تملأ صدرها بدخان التبغ، لكنها ما تلبث أن (تكح) بعنف

فيزداد وجهها الشاحب هلعًا ثم يسقط رأسها فوق مسند المعقد بإنهاك. يسألها: من هنا ؟ تهز رأسها دون أن تنطق، فيتأكد أنها بخير، حتى انتفضت فجأة وأشارت له بالتوقف.. كانت قد وصلت مكانها... التفتت إلى السائق والمعطف على كتفيها ورجته أن ينتظر قليلاً ريثما تحضر أجرته من البيت..

كان بيتًا فخمًا، تساءل السائق في سره عن السبب الذي يدعو فتاة مثلها إلى البقاء وحدها تحت العواصف والأمطار حتى ساعة متأخرة من الليل دون أن يلفت ذلك انتباه أهلها الأغنياء !

انتظر السائق كثيرًا قبل أن ينفد صبره ويستعمل المنبه الذي كان صوته قد تغير بسبب مياه الأمطار.. بدا له البيت ساكنًا وكأنهم ناموا ونسوه .. ازداد غضبًا وراح يشتم ويتوعد والمنبه يصدر أصواتًا مشوهة ضعيفة..

كانت الزوابع قد هدأت عندما أطلت من وراء الباب الخشبي الثقيل عدة رؤوس تنظر بعيون متسائلة إلى السائق الذي راح يتفحص الوجوه بحثًا عنها. أنكر أحدهم؛ وهو أكبرهم سنًا؛ أن يكون أحد من أفراد عائلته قد خرج من البيت في مثل هذا الجو وهذا الوقت المتأخر، أيده في ذلك الجميع، لكن السائق أقسم على أن ابنتهم كانت معه وأنه رأها تدخل عندهم..

أخيرًا اقترح أحدهم أن يتفحص السائق وجوه أفراد العائلة ليتأكد بنفسه، وافق الجميع على الاقتراح ودخل السائق البيت

بينما اصطف الجميع بانتظار الحكم .. تفحص السائق الوجوه مرات عديدة دون أن يجد ضالته..

- (إنها هي!)..

صرخ فجأة مشيرًا إلى صورة معلقة على الجدار.. نظر في وجوه أفراد العائلة متوخيًا أجابتهم، لكن أكبرهم سنًا قال له بحزن: (ابنتي التي توفيت قبل عامين).

صدم السائق وعاد يتأمل الصورة بإمعان، تفحصها مرارًا.. (نعم إنها هي) لكنه تنبه إلى أن إطار الصورة قد وشح بشريط أسود.. لم يكن من السهل أن يعترف بحقيقة ما يجري حوله، صرخ طالبًا معطفه متهمًا الجميع بالكذب..

خرج الجميع بصحبة السائق مع الفجر إلى المقبرة.. كان السائق لا يزال يشتم ويتوعد وأكبر أفراد العائلة يؤكد له أن ابنته الشابة ترقد بهدوء في قبرها.. وقبل أن يشيروا له إلى مكان القبر، صرخ السائق بفرح:

- (معطفي .. معطفي القديم!)

أبصر الجميع معطفًا من الصوف يغطي قبرًا تعرف عليه أفراد العائلة بسهولة.

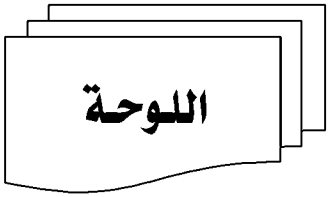

لاشيء يدعوه إلى مفارقة السرير.. جسمه مستسلم في أحضانه وعيناه تتأملان السقف النتن الذي تهرأ طلاؤه وظهرت عليه رسوم وأشكال مختلفة.. طبقة رقيقة من الطلاء توشك على السقوط لولا ارتباطها ببضع نقاط مع السقف تشكل برؤوسها المسننة جزءًا من (شعر) مجعد لشخص ما خطوط وجهه الدائري ترتسم أمامه من خلال بقعة داكنة متعفنة نتجت عن آثار الرطوبة المترشحة خلال السقف.

تحسس شعر رأسه بأطراف أصابعه، إنه يشبه طبقة الطلاء المتهرئة التي جذبت اهتمامه.. تحسس حدود وجهه الدائري، إنه تمامًا مثل تلك البقعة المرتسمة على السقف.

لم يسبق أن جذب هذا السقف النتن اهتمامه قبل الآن، بل إنه كثيرًا ما كان يتحاشى النظر إليه لأن منظره يذكره بالهموم التي يحملها والضياع الذي يعيشه في عالم لا يعرف ما هي درجة صلته به أو ماذا يمثل فيه.

الآن وللمرة الأولى يمثل سقف الغرفة التي وجد نفسه فيها قبل أعوام شيئًا يستحق أن يحدق فيه.. تلك البقعة الداكنة التي طبعتها الرطوبة على السقف تجعله يحدق فيها كثيرًا.. تتراءى له فيها خطوط باهتة لملامح شبحية، تمامًا مثل لوحة سوريالية مهملة التفاصيل.. بضعة خطوط تشكلت وكونت تفاصيل باهتة لوجه ما، وجه شخص يعرفه؛ أو لا يعرفه!

الخطوط تزداد تكاثفًا.. تتقارب وتشكل حدودًا واضحة لفم مبتسم وأنف صغير مستقيم تمامًا مثل أنفه، بينما تكاثفت خطوط أخرى منحنية بزوايا متشابكة لتكون حدودًا واضحة لعينين واسعتين يعلوهما حاجبان كثيفان تمامًا مثل عينيه وحاجبيه، وشيئًا فشيئًا أخذت هذه الخطوط بالتعمق أكثر وتكونت مفردات أخرى جعلت اللوحة مكتملة التفاصيل.. لوحة معبرة جدًا تشبهه في كل شيء بل إنها صورة طبق الأصل عن وجهه.

تحسس شاربه الكث بطرف إبهامه، وانتظر تجمع خطوط أخرى لتضيف على اللوحة شاربًا كثًا كشاربه.. حقًا إن اللوحة ناقصة، لكنه متأكد أن بضعة خطوط أخرى كافية لجعلها مكتملة في كل شيء. انتظر ظهور هذه الخطوط، بحث عنها في مدى نظره لكنه لم يجد لها أثرًا.. تسلل الملل إلى نفسه وفقد الثقة في الخطوط التي كونت تفاصيل وجهه على سقف الغرفة. فكَّر أنها ربما تكون مجرد خطوط وهمية لا أكثر. ومع ازدياد قناعته

بذلك كانت الخطوط تسير نحو الاضمحلال، فلقد بدت باهتة وكأنها تحتضر، وقبل أن يفقد أثرها، تراجع وتولد في أعماقه شعور بضرورة الاقتناع بوجودها، فلقد أمضى وقتًا في جمع هذه الخطوط وتشكيلها، وهو لا يريد أن يفقدها بهذه السهولة، إذ ليس من السهل أن يتنكر الفنان لأعماله.

وبرجوع قناعته وثقته بهذه الخطوط، عادت صورة الوجه المرسومة بعناية على السقف النتن أكثر وضوحًا مما كانت.. تحسس شاربه الكث بعناية. الصورة تظهر وجهه بدون شارب! بل تظهره كما لو أن الشعيرات الغضة السود لم تجرؤ على الظهور فيه.. صورة مبكرة لطفولته التي لا يعلم عنها شيئًا. كل ما يعلمه هو أنه وجد نفسه فجأة وبلا مقدمات في هذه الغرفة الضيقة ذات الجدران المشبعة بالرطوبة والسقف متهرئ الطلاء، دون ماضي أو ذكريات.
اليوم فقط وجد خيوطًا وهمية قد تقوده إلى الماضي، خطوطًا فاتحة جمع شتاتها وركبها بفطرة رسام يجهل تاريخ رسمه لأول لوحة.

صداع حاد يتسلل بقسوة إلى رأسه وبضع كلمات غير منتظمة تتسلل إلى ذاكرته.. يجمع شتات أفكاره، يحاول التعرف عليها.. بضعة أحرف تتشكل:

- ا... ل... ح... ا... د... ث

الحادث! حادث السيارة الذي سرق كل الماضي من ذاكرته، الحادث الذي جعل من ذاكرته لوحة بيضاء نظيفة، ومسح منها كل الألوان.

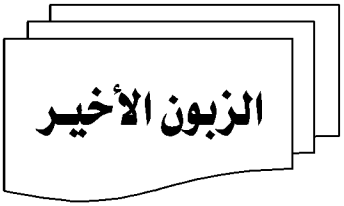

لم يدر بخلده حين أدار محرك السيارة أن يومه هذا سيكون الأخير. كانت أمامه أيام أخرى ليسدد أقساط السيارة الجديدة، وكان عليه أن يجري المزيد من العمليات الحسابية، وأن يرتب مصفوفات ومتواليات مع كل راكب ليخمن كم يومًا آخر يحتاج ليسوى ديونه، فالناس عنده ليسوا أكثر من دنانير ملطخة بالعرق واللعاب تضاف إلى حصَّالة تمشي على أربع عجلات، دنانير متسخة ببقايا رغبات وأمنيات وبصمات أصابع مطبوعة على شريط لم يعد لاصقًا أو شفافًا.

بدأ يومه بعطسة حادة أجبرته أن يغلق عينيه لفترة وجيزة لكنها كافية كي تتسبب بحادث.. كان قد سمع مرة بأنه لولا تلك الآلية التي تجيز إغلاق العينين لحظة العطاس لخرجت العينان من محجريهما. وتخيل منظر عينيه ملتصقتين بالزجاج الأمامي للسيارة مثل لطختي هلام، أو مثل بيضتين غير ممتزجتين لكل منهما صفارها وبياضها.. آلمته معدته رافضة تلك المقارنة مع الفطور الذي أعدته له زوجته هذا الصباح.

كانت طريقه عبر المدينة تمر عبر شبكة عنكبوتية جنونية.. خطوط وتقاطعات واستدارات مفاجئة ترسمها رغبة لا واعية بحيث يجد نفسه فجأة وسط المدينة بصخبها وجنونها وازدحامها بالمارة والسيارات وبعربات نقل البضائع التي يدفعها الشباب والشيوخ على حد سواء غير آبهين لزعيق منبه السيارات أو لشتائم سواقها. هناك أمام السراي القديم للمدينة، كان عليه أن يعيد حساباته من جديد وأن يضيف عامل المنافسة مع رتل لا نهاية له من سيارات الأجرة وحافلات النقل التي تسد أمامه حقل حصاد يمتد على طول رصيف مفتوح ومراوغ..

داهمته عطسة ثانية، حادة وعميقة، حاول أن يبقي عينيه مفتوحتين أطول مدة ممكنة ليرى الطريق أمامه.. شعر بقلبه يتوقف، غير أن قبضتيه كانتا لا تزالان تطبقان على المقود بقوة كافيه كي يدرك أنه موجود.. كان بانتظاره رجلان، كافح كي يميزهما خلال أهدابه التي شوشتها الشمس والدموع، وراقبهما وهما يدخلان السيارة في آنٍ واحد.. فتح الرجل الضخم الباب الخلفي للسيارة ممددًا جثته على طول المقعد الجلدي، كان رث الثياب، بينما كان الآخر شيخًا يرتدي ملابس ناصعة البياض، فتح الباب الأمامي للسيارة متمتمًا ببضعة أدعية وتحية طويلة بالفصحى وهو يعد بلا توقف حبات مسبحة طويلة... كان قد صادف العديد من رجال الدين في جولاته عبر

المدينة، غير أنها المرة الأولى التي يُقل فيها أحدهم مع وجود متشرد في المقعد الخلفي. أطفأ على الفور المسجل الذي كان يشدو بأغاني ريفية، وشرع يبحث بحماس عن أية محطة، أية قناة تبث برنامجًا دينيًا، خطابًا أو قراءة.. توقف عند محطة ما ورفع صوت المذياع، لكنه أدرك بعد لحظات أنه لم يكن تجويدًا بل موالاً لمطرب راحل.

- لننته من كل هذا الآن، أنا هنا لأقبض روحك.

نطق الشيخ بصوت أجش.. مدَّ السائق يده ليطفئ المذياع، ردعه الشيخ قائلاً:

- لا داعي لذلك، دعنا ننهي المسألة بسرعة.

نظر السائق عبر المرآة إلى المقعد الخلفي.. كان المتشرد لم يزل مستلقيًا فوق المقعد الجلدي، ابتهج السائق وقال دون أن يحرك رأسه:

- لديَّ راكب آخر عليَّ أن أوصله.

قطع الشيخ صلاته وقال جازمًا:

- لا أحد غيرك هنا.

اختلس السائق نظرة خاطفة عبر المرآة، كان المتشرد لم يزل مستلقيًا بهدوء على المقعد الجلدي، لم يكن يبدو عليه أي اهتمام لما يجري حوله، لم يكن يبدو أنه يسمع شيئًا مما يدور من حوار.

صعق السائق:

- وماذا عن هذا ؟!

هز الشيخ رأسه دون أن يجيب.

حاول السائق أن يقول شيئًا، جملة قصيرة، كلمة أو حرفًا، لكن لم يكن يدري ماذا يقول، كانت السيارة تمضي عبر المجهول دون وعي سائقها، تمرق عبر زحام الحياة دون توقف.

- سأعمل على أن يحدث ذلك بسرعة ودون ألم... قال الشيخ، وكان صوته هذه المرة نقيًا دون بحة، وأضاف:

- الصلاة تُسهل الأمر، جد مسجدًا قريبًا وصل ركعتين، سأنتظرك هنا لنسوي الأمر.

عرجت السيارة باتجاه مسجد صغير في ضاحية المدينة وتوقفت أمامه، كانت هناك لافتة سوداء لم يجرؤ السائق أن ينظر لمن هي بل دخل دون تردد ليؤدي صلاته الأخيرة.. أجرى طقوس الوضوء بمنتهي المثالية، تمضمض كما لم يفعل منذ علمته أمه الصلاة وهو في الخامسة، وملأ كفيه بالماء غامرًا وجهه كما لم يغسله منذ صلى ليرزقه الله طفلاً.. كان أبًا لثلاثة أولاد وبنت حلوة.. ثلاثة أولاد وبنت حلوة .. كان يردد ذلك مثل لازمة يذيل بها حديثه كلما قدم نفسه للآخرين. صلى ركعتين لخلاص روحه وأجهش بالبكاء مستذكرًا عائلته، ومستذكرًا أقساط السيارة التي يتوجب عليهم دفعها من بعده.. بكى لكل دينار حرام دخل

جيبه ولذلك الطفل الذي دهسه في تلك الليلة الباردة وتجاوزه بأعصاب باردة، وبكى أيضًا لأنه زوج غير حنون ولأنه لم يُقبّل زوجته منذ أشهر ولم يشتر لها فستانًا منذ دهر..

أدى صلاته ببطأ وخشوع كتلميذ صغير يردد فروضه الدينية لأول مرة.. لم يكن مستعجلاً ليلحق برزقه، فزبونه الأخير ينتظر في السيارة، وما من رزق في الأفق.

حين خرج من المسجد، لم يكن خائفًا.. كان اليأس قد أكسبه الرضا.. توجه حيث ترك سيارته، غير أنه لم يجدها، توقف يستذكر أين تركها.. بحث عنها كالمجنون في كل مكان، لكن السيارة كانت قد مضت، ومعها آخر الزبائن.

بشوق سنواته الضائعات وعذابات المنفى والفراق، عاد محملاً يستاف غبار زمن توقف منذ أخر وداع، ويقطع مأخوذًا حوارات ولقاءات دائمة ومستمرة.

داخل المشهد هذه المرة وتحت شمس حفرت فوق صخور الأسوار المنيعة بصماتها وألقت بركاتها في نهر ابتلع في شباط بعيد سر حب مزمن ليدخل عرضًا في حوار بين صديقين يلتفتان إليه في لحظة واحدة فتستوقفهما تحية غائب عابر عبر أكوان إحباطاته وتجاوز مجرات فشله وجزر وحدته، ليجد نفسه مزروعًا في صلعة وهم لا بد في مخيلة زمن يفلت باستمرار من سطوة خياراته واختياراته..

ممتطيًا صهوة أشواقه هبَّ مدفوعًا بفيض أحلام وأوجاع مزمنة يحمل في رقبته سلسلة يتدلى منها نصف قطعة نقد معدنية، هي عنوانه في حروب مجده وفشله على امتداد خارطة أيامه، ليعلن أمام الجدران المغسولة بالبوظة والسقوف المغمسة بالشكولاتة: إن زمن الفرسان لم ينتهِ بعد.

تلك إجازة انتزعها من دفاتر أيامه، بطاقة سفر إلى مدينة الشوق حيث واحة أمنياته تطفو فوق كفيه وحيث تحتفظ ذاكرة الأثير بفراغه المار عبر أزقة المتاهات النابضة بحياة تحاصر منذ سنوات غرفته المقفلة النابضة بالماضي..

أمام الشباك الضيق المطل على النهر، عبَرَ الماضي إلى ضفته، ورست سفن الذكريات عند طاولة الدراسة محملة بفيض أشواق وعذابات ومحاولات لإعادة ترتيب خارطة الأشياء ووضع نظرية لكل شيء، أو هو لكل شيء: شار كبرات أربعيم* .. والفتيات/ العقبات أمام طريق مجده اللواتي كن يسلبن وقته فيندفع في مغامرات تمزج بين الشفقة والحب، يخلص لهن دائمًا، ثم ينسحب أخيرًا دون راية يغرسها أو بصمة يُستدل منها على مروره في حقولهن المزدهرة.. يحفزه دائمًا أن يثير اهتمامهن فيمضي في طرق ومحاولات محمومة مستعينًا بقدرة على خلق الصدف وفق حسابات وجداول يضع عليها نقاط تقاطع الأحداث والأمكنة مع محور الزمن مستعينًا بدوائر الأبراج وخرائط النجوم: ذلك ما أنجزته فقط، يشتكي دائمًا، هو من تتبع مسارات الصدف عبر أنفاق اللا سببية وصنع مجدًا مستمرًا في ليالي الروليت والفتيات الجميلات، يؤرقه أن لا يجد حلاً للمشكلة الجوهرية/ النقطة المنسية.

عند طاولة الدراسة، هبت أشواقه متحررة من التفاهات تبحث في غابات الأبدية عن مصير الأشياء.. بحث في خفايا الذرة واقترح وحدات جديدة تملأ كل شيء بنسق ثابت يتكرر مثلما تكرر الخرزات الصغيرة الملونة نفسها داخل الأنبوب الثلاثي المقطع لمنظار الأشكال المتغيرة، ثم اكتشف أنفاق اللا سببية فانساق وراء إغرائها يبحث في أجوائها الخالية من كياناته عن معادلات جديدة أو يطارد أسراب المصادفات، تلك المطاردة التي نأت به عن الحقيقة وأدخلته متاهة التفاهات: الحقيقة الوحيدة التي تستحق أن يعيش المرء من أجلها هي الخلود..

ذلك ذروة ما توصل إليه في ذروة أعوامه معتبرًا ما عداه مضيعة للوقت.

لو قدر للزمن أن يعود إلى وراء؛ لاختار البحث في الأنفاق المؤدية إلى الحقيقة، ولأزاح جانبًا إغراء الانتصارات الوهمية واللهاث وراء الحقائق الزائفة والمشاكل الثانوية.. كان سيراوغ الزمن بآلة جهنمية هي تحوير لآلته التزامنية مفضلاً أبدية عذاب يطارد بها على الوقوع في فخ نسيان لذيذ، وكان سيمضي دون قلادة مثل جندي وصل أعلى درجات التفاني مقتفيًا آثار المحاولات السالفة..

هو فرصة أخرى خسرناها منذ حسم موتًا تكرر في لياليه على مدى سنواته العشرين الأولى عندما ترك ساعة المنبه؛ رفيقة

لياليه؛ منذ موته الأول الوجيز، دون إعداد ليرى المشهد إلى نهايته عبر ظلام أحلامه ومجالس العزاء وبكائه المر على شخص لا يدركه... هو فرصة أخرى بددها داء النسيان فانشغل عنها بوصفات لشباب أطول..

الآن وقد راعه منظر شيخوخته المنعكس على الجدران المتقشرة الطلاء، توصل إلى أخر نظرياته. فتح الشباك الضيق المطل على النهر الذي يقاسمه نصف سره ساحبًا شباك العناكب وصدأ المفاصل ليجد نفسه أمام مغزى جديد لكنه متأخر.. رتَّب المعادلة الأخيرة بأبسط خصائص المجموعات وأعدَّ جداول جديدة تسعى لإيجاد تقاطعات ونقاط مشتركة جديدة بين أخطاء وحلول أزلية:

لو امتلك (جلجامش) قدرًا من حذر (آدابا)
لو امتلك آدابا قدرًا من شجاعة جلجامش..
لو..
لو..
فمن سيواصل الطريق بعده ؟

*** شار كبرات أربعيم: ملك الجهات الأربع باللغة الأكدية.**

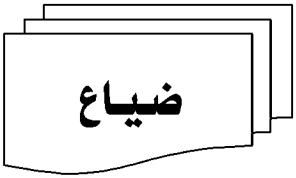

ليس لي مجال الاختيار.. الأعلى والأسفل.. اليمين واليسار.. لم أعد أفرِّق بين هذه المفردات سيان عندي.. لا فرق.. لا فرق.
أفكاري تتشتت، تضيع وسط زحمة الأحداث التي تعصف بكل شيء حولي. الأماكن بدت غير واضحة المعالم وكأن النعاس قد تسلل إليها بهدوء.. ضباب خفيف يزحف باتجاه الأشكال البشرية حولي، يلفها ويحولها إلى مجرد رموز بسيطة لا أكاد أميزها عن معالم هذه المدينة التي تلاشت وتحولت هي الأخرى إلى رموز وإشارات مبهمة تبحث عن وجودها في نطاق التجريد المكاني المتعدد الأبعاد.

النور ينحسر والظلام يمتد.. يمتد ويطغي لمسافات لا متناهية. والسكون يعزف نغمته المثيرة فوق المدينة ناثرًا فوقها ألحانه الميتة.. معالم المدينة تتبخر أمامي: الناس.. السيارات.. الأزقة والبيوت.. الشوارع والمحلات، والأرض ذاتها، وكأن اللاشيء قد انفتح وابتلع العالم برمته. حتى جسدي أحسسته أخف وزنًا وبدا لي باهتًا، لا بل إن الألوان تزول من ملابسي بسرعة وقميصي الداكن لم يعد داكنًا، لم يعد يحمل أي لون!.

أفتح عينيَّ على وسعهما.. أحاول التأكد من سلامتهما.. آه جسدي ! لقد ضاع هو الآخر.. ضاع في هذا العالم الذي تكاد (أين) نفسها تبحث عن جدوى وجودها فيه..

سأصرخ !.. تكاد الصرخة تنتفض وتخرج مدوية لكنني أكبتها.. لا زلتُ أحتفظ بصوتي.. حلم بديع لا أريده أن ينتهي. من الضروري التصرف بهدوء كي لا ألفت انتباه الناس حولي.. كثير من السيارات تمرق بالقرب مني، وفي الفضاء الممتد أمامي سأختار المحاور والإحداثيات فتظهر أمامي معالم الشارع مرة أخرى.. حفنة أحداث ومرئيات. أرحتُ كتفي على العمود الذي وقفت بجانبه.. لست متأكدًا من وجود هذا العمود أو عدم وجوده، لكنه يسندني ويريح جسدي المعلق على المحاور التي اخترتها.

الرصيف الثاني للشارع يستهويني.. أخذت أخطو عدة خطوات باتجاهه. خطوات أظنها تكفي كي توصلني للرصيف.. ها أنا ذا على الرصيف. سأتصرف برباطة جأش وأسير معتدل الخطوات محاولاً شق طريقي عبر الكتل البشرية متفاديًا الاصطدام بها، وسأرد على تحية الأصدقاء أو أبادر أنا إلى تحية صامتة تتوقف حرارتها على رغبتي.

بضع خطوات وينتهي الشارع.. يجب أن أحسب خطواتي بدقة.. الشارع يفضي إلى ساحة واسعة، لكنني لا أشعر برغبة في

التوجه إلى الساحة. كنت أتمنى أن لا ينتهي الشارع بسرعة فهو المكان الوحيد الذي احفظه وأستطيع تصوره بأدق تفاصيله، لكن خطواتي السريعة جعلته ينتهي بسرعة.. إنها عادة غير محببة طالما حاولت التخلص منها والتعود على مشية متناسقة معتدلة السرعة.

اتخذت قراري بسرعة وعدت أراجع معالم الشارع مرة أخرى بخطوات تسرع أحيانًا وتبطئ أحيانًا أخرى عندما أذكّر نفسي بضرورة التخلي عن عادة المشي السريع.

للمرة الثانية.. الشارع ينتهي. عرجت باتجاه مقهى يقع في نهاية الطرف الثاني للشارع؛ دخلته مسرعًا.. ألقيت تحية صامتة تناثرت في أرجاء المكان وتوزعت على رواد المقهى مخترقة أفكارهم المتعلقة بحركة الزار وقطع (الدومينو).. أخذت مكاني قرب نافذة تطل على الشارع الصاخب بحركة مستمرة.. قدح من الشاي الساخن أجده أمامي وأفكاري تتبعثر بين الوجوه والأماكن.. أحداث كثيرة وأماكن وأزمنة عديدة تختزنها ذاكرتي تتراءى أمامي على امتداد الشارع.. معالم سبق أن قرأت عنها الكثير، وجوه وأماكن عديدة تختفي وأخرى تظهر.. الشارع يتسع ليبتلع الوجوه والأماكن. رواد المقهى لا يبالون. أفكارهم لا تزال معلقة بالزار وقطع الدومينو.. وجوه ومعالم مختلفة الأزمان تتداخل. تمتزج كامتزاج الألوان.. أحاول كبت صرختي

التي أجلتها كثيرًا لكن دهشتي تزداد وصرختي تكاد تفلت وتنطلق والغضب يطفح مني يمتد مقتحمًا أفكار هذه الأصنام القابعة في المقهى بلا حراك معنفًا إياها.. لكنها لا ترد.

قدح الشاي الساخن لم يعد ساخنًا، لونه الأصفر الشاحب يشعرني بالغثيان.. الظلام يتسلل إلى الشارع مرة أخرى، يخفي أحداثه المتسارعة المجنونة، والسكون يلقي بنفسه على كل شيء، يكتم أنفاس الشارع..

أطرح قدح الشاي بعيدًا وأكفر بهذا العالم الذي أوجدته، وبقدح الشاي.. القدح يسقط ويندلق منه السائل الأصفر الشاحب، ينساب بسرعة ويغمر المقهى.. يغرق الأصنام.. الأصنام تبكي وتنتحب، تستنجد بي وتشعر بوجودي أول مرة. بي رغبة لا تقاوم في البقاء معها ومساعدتها.. صراع عنيف ينشأ داخلي ويمزق كياني.. صرختي المكبوتة تنتفض بقوة.. تخرج بجرأة..

شعور مفعم بالحياة، السكون والظلام يشرعان في فك ارتباطهما ببعض. أكاد ألمح نقطة الضوء المحصورة بينهما.. نقطة الشاي الصفراء الشاحبة وهي تزداد اتساعًا.. تكبر وتغمر كل شيء..

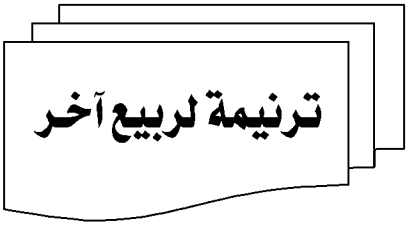

مستدركًا صمته المحموم، استعار لها هدوءًا أعزل وقال:

- في الربيع الماضي كنتِ أقل ترددًا.

أشارت بسبابتها إلى وراء كأنما تشير إلى قرون مضت، وقالت بصوت مختلف عن صوتها الماضي:

- ربيع القرون البائدة.

تنهد بارتياح وتأكد أكثر أنها هي نفسها بعنادها المجنون وحبها المزمن، نبرات صوتها المتعبة أنبأته بذلك وتوقه المر أرغمها على الاعتراف به، حبيب القرون..

وفي غمرة صمتهما اللاهب، حاول هو أن يجد ماضيًا يتحدثان عنه، وحاولت هي أن تجد ومضة ضئيلة لذكرى لقائهما الأول.. حاول كل منهما أن يتشمم رائحة ربيع بائد... وبصوت وحَّدته الرغبات تحدثا أخيرًا:

- الذكريات ضاعت مع الأجساد التي حملتها.

بصوت واحد أيضًا أجاب صدى صوتيهما الذائبين:

- والتي استوعبت ربيعنا المتجدد..

وبحب لون ذرات الماضي، أرسل كل منهما قبلة سابحة للآخر متجاوزين بذلك الوقوع في فخ الأجساد المستعارة المستوعبة لدقائق عاطفتهما غير الفانية منذ سحق هو أخر ذرات مقاومتها بإطعامها قطعة من حلوى الكراميل بعد أن استبدل عصارتها بجزءٍ كافٍ من خلاصة حبه تاركًا إياها تتعرف من ورقة التغليف على أنها (حلوى الكراميل بعصارة الكرز).

استطالت شحنات الجذب الناتجة عن القبلات المتبادلة عبر الأثير حتى قربت بينهما. وفي غمرة استعدادهما المشترك للقبلة المتأخرة التي طالما حلمت بها شفاههما دهشا بمساحات الفراغ بينهما وتأكدا بما لا يقبل الشك أنهما لم يتزحزحا عن موقعهما قدر لحظة. وبأصابع واهية مدَّ كل منهما يده ليتحسس حجم الزمن المتروك بينهما، ثم ليعيشا غربتهما القاسية وانتماءهما المستحيل إلى الفراغ الذي احتلاه في الزمن.

علقت بعض ذرات الذكريات الأولى بدقائق عاطفتهما غير الفانية وتسللت خلال مسامات الدهشة المرتسمة حول حدود كيانيهما.. تذكرا شيئًا من ربيعهما الأول بخيال مطلق؛ وليس بذاكرة متخمة. ودارت بين صدى صوتيهما حوارات لقائهما الأول مثل ترنيمة سرمدية مصونة عبر الفناء، متسربة بدهاء من سطوة العدم والنسيان.. بربيع متجدد أبدًا. تخيلا الماضي، حلما به وتحدثا عنه بصيغة إدراك أنهما كانا يمتلكان ربيعًا محددًا.. وضحكا طويلاً لخيالاتهما البعيدة.

حملتهما أمواج الخيالات اللاهبة وبات من المستحيل معرفة انتمائهما.. كما لو كانا إلهين اغتسلا من عار التقوقع داخل طغيان الزمان، سافرا بعيدًا وهما يرنوان بشفقة إلى أسفل تاركين كل الفراغات فارغة مثل علب سكائر أفرغت بذكاء دون أن تفتح. التصقت كريات الزمن بعضها مع الآخر وماتت مسافاتها البينية، ألقيا القبض على الزمن تمامًا مثلما كانا يحلمان عندما انتزعا ورقة من تقويم أول ربيع لتبقى إلى الأبد مصلوبة إلى الجدار بمسامير لا تصدأ..

ثم بتقزز خال من الرحمة، راقبا مشيتهما دون هدف من وجهة نظر السماء، أو من وجهة نظر حجارة أو جذع شجرة. استوعبا في طريقهما الفراغات المتروكة بنبض الحياة الكامن في أعماقهما كما لو كانت فراغات مصممة لهما وتتسع لربيع آخر.

دخان أيلول في سهولنا

كان الجو لا يزال حارًا؛ حتى وإن بدا وكأن الصيف يلفظ أنفاسه الأخيرة في مثل هذا الوقت من أيلول، ولم يكن مكيف الهواء في السيارة كافيًا ليطفئ اللهب الذي كان يحسه في جسده الذي تعرق كثيرًا في يوم عمل غير عادي، وكان يومًا طويلاً بحق، لكن ها هي السيارة الرباعية الدفع توصله من مقر عمله في إحدى وكالات الأمم المتحدة لنزع الألغام.

كان البيت عند رجوعه خاليًا، وتذكر على الفور أن الجميع كان في الخارج، فالأب كان في المقهى يلعب الدومينو مع أصدقائه، بينما الأم مع شقيقه الأصغر عند الطبيب في مراجعة دورية لمرضها المزمن مع ضغط الدم.

رمى بجسده في أقرب كرسي وأمسك بجهاز التحكم عن البعد ليقلب القنوات الفضائية.. أحسَّ برأسه ثقيلاً، وكأن الصداع؛ الذي داهمه منذ سمع نبأ مصرع موظف ألغام صباح اليوم بانفجار لغم؛ قد شلَّه تمامًا بينما كانت الأفكار تشوش عليه

استيعاب الصور التي كان يراها على الشاشة، وللحظات بدا له وكأن خللاً ما قد أصاب التلفاز، أو أن البطاريات نضبت من جهاز التحكم، فلقد كانت القنوات كلها دون استثناء تعرض اللقطات ذاتها وهي لقطات ظنها لفيلم من أفلام الخيال العلمي.. كانت الطائرة الثانية تتجه صوب البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي في نيويورك فتصطدم به في لقطة تحبس الأنفاس كتلك التي في أفلام هوليود، لكن تفكيره كان منشغلا تمامًا بما حدث في العمل صباح اليوم.. كان (علي رسول) قد تلقى ترقية ليصبح آمر فصيل إزالة ألغام بعد عامين من الخدمة في استخراج الألغام الأرضية، وكان يومه الأول في الترقية وقد وصفه هو بأنه اليوم الأجمل في حياته.. هكذا سمعه الرفاق وهم يستعدون ليوم عمل خطير جديد. كان كل شبر من حقل (قوره برازه) الممتد في سهل (رانية) مزروعًا بالموت، ولم تكن هناك خرائط لتعقب الألغام المضادة للدبابات، فلقد زُرعت على عجل وبعشوائية في فترة عصيبة من القتال في ستينيات أو سبعينيات القرن الماضي، إذ لم يكن هناك وقت (للبيشمركه) على ما يبدو ليهندسوا العملية التي كان هدفها إعاقة دبابات الجيش من المضي عبر السهل لاحتلال معاقل الثوار في المرتفعات.

كان علي رسول مبتهجًا جدًا بيومه الأول كآمر فصيل وكان حماسه يدفعه لشجاعة غير محسوبة حين بدأ يجول مختالاً في حقل الألغام، فلا شيء يخيف حقًا في ألغام صُممت ضد

الدبابات.. لكن الموت احتال عليه، فاللغم الذي يفترض أنه يتحمل وزن شخص عادي دون أن ينفجر كان ملغومًا بلغم آخر شخصي.. انفجر اللغم المُعد ضد الدبابات مباشرة بعد انفجار اللغم الشخصي ليحيل علي رسول إلى أشلاء استغرق رفاقه في جمعها ساعات.

كان التلفاز يعرض مشاهد الانفجارات والدخان والناس، لكن أفكاره كانت تسرح بعيدًا.. كان يفكر بعائلة علي.. لقد كان يومًا مؤلمًا حقًا فلقد حضر مع بقية الموظفين في الوكالة جانبًا من مراسيم العزاء والتقى بالعائلة المفجوعة.. لشد ما أحزنه رؤية ابن علي ذو الربيعين يبكي لبكاء أمه دون أن يعرف السبب.. فكَّر بالمصير الأسود الذي ينتظر هذا الطفل حتى بعد أن تسلمت الزوجة المفجوعة تأكيدًا من مدير الوكالة بأنه سيتم تأمين مبلغ الضمان الذي لا يوازي بأي حال من الأحوال الخسارة الكبيرة.

كانت الجثة التي جُمعت أوصالها من قبل رفاق علي قد وصلت المستشفى في عدة أكياس ويقينًا كانت هناك بقايا أخرى تبخرت مع لهب الانفجار الذي سُمع صوته على امتداد السهل.. وصلته صور الحادث وصور الجثة المشوهة التي لم تكن تمت بصلة إلى شيء بشري.

كانت تلك الصور تختلط، في ذاكرته، بلقطات الهجوم على مركز التجارة العالمي التي كانت تُنقل مباشرة عبر القنوات الفضائية..

كانت قيامة مصغرة تجري في ذلك الجزء من العالم، وكان العشرات يطيرون في الهواء وهم يلقون بأنفسهم من البرجين المدمرين في محاولة يائسة لإنقاذ أنفسهم.. علي رسول طار أيضًا في الهواء من عصف الانفجار.. فكَّر مع نفسه وهو يمد يده إلى جيب قميصه ليخرج علبه السكائر.. أخذ سيكارة ليدخنها مع أفكاره.. كان علي رسول وآلاف آخرون في نيويورك يضيعون في دخان السيكارة التي لم تلبث أن وصلت نهايتها لتصبح هي الأخرى ماضيًا.

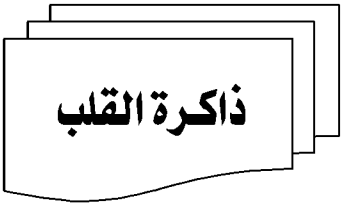

(١) داليا

ها قد جلس بجانبها أخيرًا على رحلة واحدة بعد أن أعيد ترتيب الصف حسب تسلسل الحروف الأبجدية.. نظر إليها بطرف عينيه؛ دون أن يجرؤ على تحريك رأسه؛ وفكَّر في الرائحة الزكية التي كانت تأتي من جانبها، فربما كانت تحمل وردة، فالبنات يحملن الورود دائمًا ليهدوها إلى معلماتهن.

مرَّت دقائق ثقيلة قبل أن تبادر هي إلى الكلام. قالت له وهي تضع يدها الصغيرة في الرف الخشبي للرحلة: هذه الرحلة مصابة بالحساسية ! مدَّ يده ليتحسس الخشب غير الصقيل للرف، كانت هناك الكثير من الندب والنتوءات الصغيرة، تحسسها بأطراف أصابعه وهزَّ رأسه موافقًا: نعم هناك الكثير من الحساسية.

استمر كل منهما يتحسس سطح الرف غير الصقيل حتى تلامست كفاهما الصغيرتان، فهدأت الحساسية، واختفت الندب، وأصبح سطح الرف صقيلاً.

(٢) زوران

أذكر (زوران) وهو يناولني ورقة بيضاء من كراسه في أول درس أحضره في صفه.. أذكر وجهه الحبيب وشعره الكستنائي الكثيف المنسدل على جبينه، وأذكر صوته الذي كان أكبر من سنه. شاركته رحلة الدراسة وهمومه الصغيرة. كان يحب رسم ناطحات السحاب، وكان يخبرني أن في أوروبا الكثير منها، وكنت أتساءل ما إذا كانت أعلى من العمارة الوحيدة في مدينتي آنذاك.

كان زوران من أب كوردي وأم يوغسلافية.. لم نكن نعرف شيئًا عن الصرب والكروات والبوسنيين في تلك الأيام، وكان زوران يغادرنا في الصيف ليقضي عطلته في يوغسلافيا ويعود مع افتتاح المدرسة أكثر وسامة.

مضت أيامنا الحلوة ولم أعد أرى زوران، وقيل إنه سافر إلى أوروبا مع أهله. أخبرني صديق قديم، التقيته بالصدفة مؤخرًا، أن النازيين دفعوا زوران من ناطحة سحاب.. صعقني الخبر وتخيلت زوران وهو يهوي، مثلما أعتدت أن أرى نفسي في كوابيسي.. تخيلت وجهه مندهشًا ومتسائلاً كيف أن ناطحات السحاب التي أحب أن يرسمها في طفولته؛ تنكرت له وتآمرت مع النازيين على حياته.

(٣) المسلة

تترنح النملة.. تحاول الهرب من طوق الضوء الحارق للشمس الذليلة في بؤرة العدسة الجهنمية التي أخرجها الولد الشقي من صندوق ألعابه ليصطاد بها النمل. يسخن جسم النملة الضئيل.. تغلي قطرة الحياة فيها، تتمدد، تكبر قبل أن تنفجر مخلفة رائحة شواء لاذعة.

يضحك الولد الشقي ويحفر بعملة معدنية صفراء خطًا جديدًا على الجدار ليخلد انتصاراته.

• • • •

(٤) النهار

تتجدد في كل ليلة تساؤولات طفولية حول مصير النهار..

ويجتهد الصغار في قشط الطلاء الداكن لقبة السماء بحثًا عن الشمس.

• • • •

(٥) المستحيل

حول مائدة صغيرة، تحلقت العائلة تقتسم بالتناوب طبق البيض المقلي، ومع كل لقمة كان الصغير يعدِّل من وضع الطبق متخيلاً خارطة غير موجودة في كتب الجغرافيا.

لكن ضربات ملاعق الكبار لا تلبث أن تشوه خارطته وتقتطع؛ في كل مرة؛ أجزاءً أكبر من حلمه المستحيل.

(٦) المرة الأولى

كانا فرحين لأنها المرة الأولى التي تُتاح لهما فرصة الخروج معًا دون وصاية. دفع أحدهما أجرة الباص عن الآخر متخلقًا بالكبار. توقف الباص في السراي القديم للمدينة ونزلا معًا إلى السوق، هناك اشتريا كتابين من سلسلة (الناجحون) وكتابين صغيرين من سلسلة (بساط الريح) وعددين من (مجلتي) (المزمار)، إضافة إلى مجلدين أنيقين من كتاب (المعرفة)، وحين اكتفيا توجها إلى ساحة السراي ليستقلا باص الإياب.

تحرك الباص ودحس كل منهما كفه الصغيرة في جيبه بحثًا عن قطعة نقد.. تعمد أحدهما التأخير وكان قد دفع في الذهاب، لكن الثاني تأخر أيضًا في إخراج يديه من بنطلونه. واصل الاثنان بحثهما المحموم في فراغ الجيوب حتى توقفا فجأة عندما التقت نظراتهما تعلنان الإفلاس؛ بينما واصل الباص مسيره عبر المدينة.

(٧) الكتاب الأول

ظل يحتفظ بأول كتاب قرأه في حياته ومعه شعور بالذنب لأنه تجاوز مدة الاستعارة منذ أكثر من ثلاثين عامًا..
وعندما فكَّر في إعادة الكتاب؛ لم يعد للمكتبة وجود، ولم يعد للحرف العربي وجود.. فحمد الله لأنه لم يزل يحتفظ بأثر من ذلك الزمان، وكتاب بلغة لم تعد متداولة.

• • • •

(٨) طيور منتحرة

قرر أن يستقيل من مناصبه الأكاديمية، وأن يتوقف عن إلقاء المحاضرات التي تدعو إلى بيئة أنظف حين أكتشف أن محاضراته انتهت إلى أقماع ورقية تُلف بها بذور دوار الشمس التي يلتهمها المثقفون وغير المثقفين؛ ناثرين قشورها السوداء في الشوارع والساحات كمناقير لطيور منتحرة.

• • • •

(٩) الأنيق

عمل لعدة أشهر ليتمكن من شراء معطف جديد ويستمتع بصورته المنعكسة على الواجهات الزجاجية للأسواق والمحلات. وقف عند بداية الشارع العام ينظر بوجل إلى الشريط المسرع للناس والسيارات، يتجاوز بمهارة دخان عوادم السيارات وسكائر المارة ليحافظ على (فرو) معطفه الناصع.

كان ساهمًا عندما وضع قدمه في تيار الشارع المسرع، فاجأته لحظة الهدنة دافعة به إلى صمت أزلي...
فتلوث فرو المعطف، وسقطت صورته من على الواجهات الزجاجية مثل حمامة ذبيحة.

• • • •

(١٠) التاريخ

ثار الشعب وأنزل صور الدكتاتور من الشوارع والساحات ودورات المياه... وعلقها في سفر التاريخ..

• • • •

(١١) أحـلام مـمزقة

مضت ساعات الترقب والقلق، غادر الضيوف الشقة التي ازدحمت ببقايا حفلة الميلاد.. ونام الصغير، الذي أكمل في تلك الليلة السنة الثانية من عمره، مرهقًا من الابتسام.

كان الوالد القلق ينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، كان قد سمع قبل أيام بقصة الصبية التي كانت تنفخ بالونًا صغيرًا لشقيقها في عيد ميلاده حين انفجر البالون إلى مزق صغيرة انحشرت إحداها في حلق الصبية لتقطع عنها الهواء.

انتظر الوالد اللحظة التي يغادر فيها الضيف الأخير لينفذ ما كان يراود ذهنه.. جمع البالونات الصغيرة الملونة التي ازدانت بها غرفة الصالون وتلك التي كان صغيره يلعب بها قبل أن ينام، أدخلها إلى غرفة مجاورة وقرر أن ينفذ فيها الإعدام... مضى بدبوس صغير في تفجيرها واحدة تلو الأخرى...
بينما كان الصغير غارقًا في نومه، يحلم بيوم جديد وجنة مليئة ببالونات ملونة صغيرة.

• • • •

(١٢) حكاية عرفان

رحل عرفان المسكين... رحل وهو لم يزل طالبًا في المرحلة الثانية من كلية اللغات قسم اللغة الإنكليزية. كان حلمه أن يأخذ الشهادة التي ستشهد للجميع على طلاقته في التحدث بالإنكليزية.. كان حلمه أن يتحدث مثل أستاذ مادة الرواية أو الشعر. لكنه أمضى ست سنوات راسبًا في المرحلة الثانية.. ست سنوات وهو يستعير شبابًا ولى وعمرًا أبى أن يتقاعد. لكن نتائجه كانت في كل عام هي نفسها، راسبًا في كل المواد. الذين كانوا يسلمونه النتيجة في نهاية العام الدراسي كانوا يحاولون التهرب من تلك المهمة لأنهم خبروا ردة فعله المرتسمة على وجهه المليء بالتجاعيد، وخبروا ارتعاشة يديه وهو يتسلم النتيجة ليفجع بها فيحمل جسده النحيل ليخرج مطأطأ الرأس من الكلية.

لم يكن يسمع نصائح أساتذته الذين أتعبهم تعليمه بضرورة ترك أوهام تعلم لغة أجنبية في خريف العمر.. لم يكن يأبه أبدًا للنداءات التي كان تدعوه للتوقف عن هدر العمر أكثر والالتفات للصلاة كي لا يخسر دينه كما خسر دنياه.

الآن وقد غادرنا عرفان بعد أن يأس من استحصال الشهادة.. الآن وقد قطع شوطًا في المضي إلى شواطئ اللا عودة.. الآن

وقد نزل الملكان يستجوبانه؛ فإن عرفان المسكين لم يجب بالعربية، بل بإنكليزية طليقة تفوق إنكليزية أستاذ الرواية والشعر والمحادثة...

حينها كفَّ عن اليأس، وفكَّر بطريقة يعود بها كي يخبرنا بذلك بإنكليزية طليقة.

• • • •

(١٣) المكتبة

وصلتْ المكتبة أخيرًا بعد انتظار أشهر.. حملها أربعة رجال أشداء على أكتافهم ورفعوها على السلالم حتى وصلت الطابق التاسع. كانت كبيرة جدًا بحيث أنهم لم يتمكنوا من إدخالها إلى المصعد مما خيّب آمال زوجة طالب الدكتوراه التي كانت قد اقتنعت على مضض بجدوى تلك المكتبة التي أصر الزوج على إحضارها من أوروبا على حساب جمالية الشقة الصغيرة.

كانت مكتبة كئيبة بحق، فقد كتمت أنفاس الشقة واغتصبت الجدار حتى أخر شبر تقريبًا، فألقت بظلال ثقيلة على المكان وأضفت الضيق على المدخل الذي طالما كان رحبًا.

تفحص الزوج المكتبة ليتأكدا من أنها نفس المكتبة التي في الدليل ذلك لأن كلاهما كان يكتم لوعة. ولم يلبث أن تحول اللعاب الذي ظنا أن بإمكانه إطفاء تلك اللوعة في الحلق إلى مركب مالح لزج بعد أن خالطته دموع خفية كانت تنحدر من وراء، وكانا قد نسيا ذلك الطعم منذ طفولة بعيدة.

لم يناقشا الأمر كثيرًا، ولم ينتبها إلى أنهما مكثا ساعات أمام التلفاز دون أن ينظرا إليه. لم يكن أي منهما يفكر في شيء، بل كانا يسرحان خارج الأفكار وخارج كل شيء.

خلدا إلى النوم أخيرًا في مساء ذلك اليوم بصمت، وظلت أسطوانة اللاشيء تدور وتدور حتى في المنام. لكنهما استيقظا على صوت مدوي: بوووم.. صوت قوي تضاعف بسبب أنهما كانا يغطان في نوم عميق.. اخترق الصوت الحلم المشترك الذي كان يحلمانه، وتذكرا على الفور أنهما؛ وفي غمرة انشغالهما بمطاردة (شيء) ما في أحلامهما البيضاء؛ غفلا عن مراقبة ابنتهما ذات الربيعين، التي راحت تتسلل من وراء ستار الحلم لتتسلق رفوف المكتبة حتى اقتربت من الرف الأخير؛ قبل أن تسقط وتُسقط معها المكتبة.

لم يناقشا موضوع الحلم كي لا يوقظا الصغيرة التي كانت تواصل بلا كلل تسلق رفوف المكتبة وهي في فراشها. بل توجها فورًا إلى المكتبة.. زحزحاها بصمت ونجحا في جرها إلى الشرفة المطلة على الفضاء أمام العمارة، ثم بذلا جهدًا كي يخرجاها من مركز ثقلها، فهوت من الطابق التاسع لتتحطم مثل تابوت ثقيل لرجل دين مات ميتة طبيعية؛رغم أنه تسبب بحروب طويلة وبمقتل الآلاف.

• • • •

(١٤) ميــرشـــاد *

تُرى هل دار في خلد (ميرشاد) وهو يهديني قصة (العائلة السعيدة) أن عائلته سينتهي بها المطاف لتكون تعيسة؟...
هل توقع يومًا أن أتحدث عنه وعن عائلته كمثال على البؤس الذي يمكن أن يحيق بعائلة كانت فيما مضى (سعيدة) كما في القصة المصورة التي أهداني إياها؟

كنتُ في الصف الرابع الابتدائي حين التقيت ميرشاد لأول مرة.. كان قد جاء نقلاً من مدرسة أخرى وكنتُ أرتاب منه بسبب تعلقه الشديد بي، لكن وشائج الصداقة والود ما لبثت أن حلت محل التردد والارتياب منذ أهداني تلك القصة التي ربما كانت القصة الأولى التي أقرأها في حياتي. كان فتى نحيلاً، هادئًا، لا بل كئيبًا بالنسبة إلى البعض، ولم يلبث هدوءه ذاك أن تحول إلى كآبة حقيقية بعد مقتل شقيقه الأصغر بحادث كهرباء مؤسف.

كانت الشخصيات في القصة التي أهداني إياها ميرشاد سعيدة تعيش حياة جزلة مرحة، وكانت الابتسامة تعلو الوجوه التي اكتست بحمرة العافية بينما الأعين متوهجة تتقد مرحًا وذكاءً وعيشًا رغيدًا.

وحين وصلت البدلات الزرقاء البراقة الموشحة بخارطة (الوطن الكبير) إلى المدرسة، انضممنا إلى (منظمة الطلائع) وكنتُ

وميرشاد قبل ذلك في الكشافة، لكن أحدًا لم يعد يكترث بالكشافة بعد وصول البدلات الزرقاء البراقة. أذكر أني لم أرَ ميرشاد سعيدًا مثلما رأيته يوم استلم بدلته، وأذكر أنه أخبرني أنها مصنوعة في (رومانيا)؛ وكان الاسم جديدًا عليَّ في ذلك الوقت.

لا أذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيها ميرشاد. مضت السنوات بسرعة. كان قد تخلف عني في الدراسة فأصبحتُ لا أراه إلا في الاستراحة بين الحصص. وبعد أن دخلتُ الإعدادية، لم أعد أراه بالمرة وانقطعت أخباره أيضًا.. إلى أن دار في بالي أن أبحث عن أصدقاء الطفولة عبر الإنترنت.. بحثتُ كثيرًا عن ميرشاد، لكني لم أتوصل إليه، كان البحث يدلني إلى أشخاص آخرين لكنهم لم يكونوا ميرشاد الذي أعرف. أخيرًا قادني بحثي المحموم إلى (ميرداد) شقيق ميرشاد. تذكرت اسمه في حلم.. تذكرت كيف احترق في حادث وكيف تركت الحروق آثارًا في وجهه.. سألته عن ميرشاد وصدمتُ حين أخبرني أنه اغتيل منذ أعوام بعيدة في رومانيا على يد عناصر المخابرات..

تذكرت البدلة الزرقاء المرقطة ووجه ميرشاد وهو يخبرني بلهفة أنها مصنوعة في رومانيا.

• • • •

*ميرشاد: أمير الفرح باللغة الكردية.

(١٥) ديكتاتورية الشهداء

لأنه شهيد، فلقد استحق أولاده قبولاً خاصًا في الجامعة، واستحقت الزوجة بيتًا وسيارة وراتبًا مدى العمر، واستحق الأخ والأخت وبقية العائلة إقطاعيات وأراضي ووظائف حكومية وغير حكومية، ومزادات محسومة سلفًا، وهكذا المناقصات والمزايدات.

وقبيل الانتخابات تضاعف الاهتمام، وتسابقت الأطراف على تعليق صور الشهيد في الشوارع والساحات وعند تقاطعات الطرق.. أُهدِقت الهدايا والامتيازات على عائلة الشهيد، على كل فرد من أفرادها، صغيرها وكبيرها، وصار للعائلة شجرة كبيرة تمتد فروعها حتى الصين.. صار نصف الشعب عائلة الشهيد.. والنصف الآخر في طوابير أمام هيئات الإغاثة، تنتظر رحمة الله..

• • • •

(١٦) الترنيمة

لبرتقالة حياته حكاية حميمة ظل يستذكرها مع نفسه حتى أخر يوم في حياته. يذكر نهار ذلك اليوم الشتوي البعيد حين أبلغته قرار قبولها الوظيفة الجديدة وانضمامها إلى شركة أخرى.. يذكر ذلك اليوم الحزين بكل تفاصيله..

كان يومًا باردًا جدًا، كانت الغيوم تكتم أنفاس المدينة وتلقي بضلال كئيبة على روحه دون أن تنزل منها قطرة شفقة، بينما كانت دموعه تنهمر من وراء عينيه أو تستوعبها حدقتاه الواسعتان دون أن تجري على خده فتفضحه. لكنها قرأت تلك الغيوم السوداء في عينيه، وعرفت مقدار الألم الذي يسببه هذا الفراق، وهو الذي تعود أن يراها كل يوم من أيام الأسبوع ماعدا الجمعة.

كانت البرتقالة، برتقالة حياته، على مكتبها، وبالمفاتيح التي كانت عليها تسليمها، حفرت على أديمها صورة وجه مبتسم علها تقلب الإحساس الحزين لذلك اليوم..

البرتقالة التي يُفترض أنها قطفتها له من حديقة منزلها بقت معه، غلفها وأخفاها في درج مكتبه؛ لأنه اكتشف وهو يؤجل أكلها يومًا بعد يوم؛ أنها يمكن أن تخلد بالصورة على قشرتها.

أصبح للأيام مع ذكراها شذى البرتقال، لكن سرّ تلك الرائحة تكشف بعد أشهر عند زيارته الأولى لمنزل ذويها يطلب يدها. فشراب الفرح كان نادرًا حقًا. تجرأ وسأل عن مصدر الشراب فأخبرته أنه عصير طبيعي من أشجار البرتقال التي زرعتها أمها من بضعة بذور، لم تأبه حين أخبرها البعض أن محاولتها ستبوء بالفشل، بل أودعت سر البذور في تربة الحديقة، وقرأت عليها ترنيمتها الخالدة لتعيش وتكبر.

• • • •

رسالة متأخرة إلى صديق

وقف أمام المكتبة التي علاها الغبار، فلقد انقضت أكثر من عشر سنوات على أخر مرة قرأ أو كتب فيها شيئًا يستحق الذكر.. كان قد اعتاد هذا الكسل منذ سلَّم للأيام أمره وقلمه... أخذ يتأمل الكتب المصفوفة بشكل عمودي وابتسم حين لمح كتابًا لـ(كولن ولسن).. سحبه وهم يفرد صفحاته بسرعة، تمامًا مثلما كان عمه يفعل ليريه كيف تعمل السينما، وتذكر تلك الصور البسيطة التي كانت تتحرك على طرف صفحات الكتاب بفعل خداع البصر.. ولم يلبث أن عاد إلى الحاضر عندما سقطت من الكتاب رسالة مخبأة منذ زمن بعيد..

فتح الرسالة وشرع يقرأها بسرعة.. كانت رسالة مقتضبة من عمه يُلح عليه أن يأتي لزيارته في أقرب فرصة لأنه منشغل بإخراج عمل مسرحي في (أربيل) ولن يستطيع السفر.

همَّ بإعادة الرسالة إلى الكتاب عندما لمح التاريخ مباشرة تحت آخر جملة فيها: أعتذر عن رسالتي القصيرة هذه، ولكن تعال..

دُهش لأنه اكتشف أن الرسالة كُتبت في نفس ذلك اليوم قبل عشرين عامًا.. استفزته المصادفة واستفزه التوقيت، فشرع يكتب الرد...

صديقي العزيز :

شكرًا لرسالتك التي تُسافر معي عبر الزمان والمكان منذ كتبتها لي في مثل هذا اليوم قبل عشرين عامًا، وعذرًا لتأخري في الرد فلقد استغرقتُ كل تلك السنوات لأستوعب معنى حبك الكبير لي. سنواتٌ طويلة مرَّت، عشرون عامًا مرَّت قبل أن أعرف معنى أن يصبح للإنسان ابن أخ يراقبه وهو يخطو أولى خطواته في درب الحياة الصعب. الآن أعرف وأكاد أجن، ففرحتي لا تستوعبها أسطر أو رسالة، ذلك لأنني أعرف الآن مقدار حبك لي، فلقد أصبحتُ أنا الآخر (عمًّا)، ويالروعة هذا الشعور!

اشتقتُ لرسائلك الحميمة، واشتقتُ أكثر لصوتك المسرحي الفخم وأنت تقرأ لي قصص الأطفال المصورة. اشتقتُ لجلسات السمر تحت ضوء النجوم وتحت القمر، واشتقتُ أكثر لطريقتك في الترحيب بي كلما طال الغياب حيث تَرفعني وتضمني بقوة وتدور بي عدة دورات قبل أن تعيدني إلى الأرض. اشتقتُ لقامتك المديدة وهي تبرز بين القامات وتزهو في ظُلمة المسارح قبل العرض حيث تَتحكم بالظلال وبكمية الأضواء

وتتحكم بخيوط العرض قبل العرض. واشتقتُ لحضورك المؤثر على خشبة المسرح حيث يُصفق لك الجمهور لأنك تُجيد دائمًا أدوار الثوار والقديسين، ولأنك أيضًا الأكثر وسامة بين كل الشخصيات.

لا زلتُ أذكر الكتب الأولى التي أوصيتني بقرائتها، ولازلتُ أتذكرك مع صوت فيروز في كل صباح، فأنت من علمني تلك العادة التي أعاني منها الآن والتي بسببها أصبحت (لامنتميا) ونمرًا لا يُروض لا في (اليوم العاشر) ولا في اليوم الألف. لقد غرستَ فيَّ فضول البحث في رفوف المكتبات وتقليب الصفحات والحُكم على الكتاب من الطبعة، فأصبحتُ لا أعترف إلا بطبعة بيروت والقاهرة، ولا أستسيغ كتابًا لم تتناوله الأيادي ولم تُعفره رائحة الزمن.

صديقي العزيز :

مضى زمنٌ طويل منذ أخر عرضٍ لكَ على مسرح الحياة، وأتصورك الآن واقفًا بشموخ على خشبةِ مسرح آخر، وفي بعدٍ آخر، تنقل عيناك بين الجمهور عَلك تجدني بينهم، فمنذ الطفولةِ كنتُ دءوبًا على حضور عروضك. كنتَ تأخذني معك فأزهو برفقتك.

كنتَ تأخذني إلى السينما.. تأتي وتطلبَ مني أن أغير ملابسي فهناك فيلم جديد يُعرض على صالة سينما (دلشاد) ويدور حول

الثائر جيفارا، ولازلتُ أتذكر جَوابك على سؤالي المُلِح: من هم الذين قتلوا جيفارا؟

وكان جوابًا مِن ثائر...

بالأمس شاهدتُ فيلمًا من أفلام ذلك الزمان، فيلمًا من أفلام السبعينيات، طريًا وملونًا أكثر من ألوان هذه الأيام، ولمحتُك بين الشخوص، باسقًا ببنطال الجينز والقميص الضيق وبشعرٍ كثيف سبعيني التصفيف ولحيةٍ مُسترسلة؛ كنتَ تتذرع بأنها من مُتطلبات الدور الذي تؤديه على المسرح كي تهرب من مساءلةِ والدي أو شقيقك الأكبر. تذكرتُك أيضًا حين أجبرت على حَلق لحيتك وشَعرك لأنك استدعيت للخدمة العسكرية وتذكرتُ الدراجة الهوائية التي كانت تُقِلك من المعسكر إلى شقتك في أربيل بعد عدةِ سنوات عندما صارَ لك بيتٌ وزوجة وأطفال.

لماذا الحياة تصبح أتعس كلما تقدم الزمن؟

لماذا الألوان تزول وتبهُت، ولماذا العصافير لم تَعد تُغرد مثل أيام زمان؟

لماذا مضى زمن الرسائل المغسولةِ بالدموع، المكتوبة بحبر الروح والموقعةِ بقبلة؟

كم أنت محظوظ لأنك لم تر ما حلَّ بالدنيا الآن..

كم أنت محظوظ لأنك لم تدرك عصر العبثِ والكآبة، عصر الرسائل القصيرةِ والإلكترونية..

عصر موتِ الأحلام ورحيل الحب والألوان..

كم أنت محظوظ لأنك رحلت ولم تدعنا نراك تَشيخ، رحلتَ شابًا فظلت صورتك في ذاكرتي نفس تلك الصورة التي رأيتكَ فيها أول مرة، مثل أبطال أفلام ذلك الزمان البهي، يظلون شبابًا دائمًا كلما مرَّ الزمن، أو كلما أعادوا بث تلك الأفلام.

أراك دائمًا بنفس الوجه الجميل، الشاب والمتُحمس، أراك وأنت تقف عند عتبة باب (مقهى الشعب) وأحاديثٌ ساخنة تدور بينكَ وبين أصدقائك من مسرحيين وأدباء، ودخان السكائر تُعفر لحيتكَ المُسترسلة التي أطلقتَها بعد انتهاء العسكرية وبعد الانتفاضة، كنتَ تقول لي وأنتَ تَرتشف قدح الشاي: الشعب كله يعتمد الآن على السُكر القليل المُترسب في قعر هذا القدح ليأخذ كفايته من الحياة!

تلك كانت أيام الحصار.. أيامٌ تحول الجميع فيها إلى شرب الشاي رغم غلاء الأسعار ورغم شِحة السُكر في الأسواق، وكنتَ تقول أن ذلك من سُخريات القدر.

كنتَ تقول لي ونحن نُقلب معًا الصور الفوتوغرافية الكثيرة في قبو منزل الجَدة أيام الضجر والانتظار: انظر إلى تلك الصور، كأن أصحابها يعرفون أنهم ميتون، تطلع في أعينهم، كأنهم ينظرون إلينا من عالم آخر.. كأنهم التقطوا تلك الصور لنتذكرهم.

الآن وبعد كل تلك السنوات، أنظرُ إلى صُورك الموجودة في ألبومات العائلة فلا أجدك مَوسومًا بالموتِ كما الآخرين. أجد في عينيك نفس الألق وكأنك تحدثني عن أخر فيلمٍ يُعرض، أو أخر مسرحيةٍ قمتَ بإخراجها، أو أخر دورٍ تقوم به، أو أخر كتابٍ تَقرأه... أسمعك تنبض، تتنفس، وأشم رائحتك نفسها التي لم تتغير. فأيُ معنىً لغيابك إذن؟

اشتقتُ لصوتكَ يَهز المذياع، ولحضورك على التِلفاز.. لطلتك البهية التي تأسر القلوب.

قبل سنوات من أول إشراقةٍ لصوتك عبر الأثير، كنتَ شاهدًا على لحظة إذاعة البيان رقم (١) عبر إذاعةٍ صغيرة من صنعي، حين قفزتَ مع والدي فرحًا لخبر الانقلاب العسكري الذي دَبرتُه بنفسي والذي ألقيتُ بمسؤوليتهِ على أحد كِبار قادة الحرس الجمهوري. حينها أشفقتُ على قلبيكما من الفرح، فأخبرتُكما بأن لا صحة لذلك وبأن صوت المُذيع العصبي هو صوتي وأن الأغنية الحماسية التي تلت البيان هي لـ(ماجدة الرومي)، فتلقيتُ تأنيبًا منكما؛ ليس لأن الخبر كان مزعومًا، وليس لأنني أذعتُ البيان لأمتارٍ قليلة عبر الأثير، بل لأنني قطعتُ عليكما حُلمًا جميلاً لم يتحقق!

ومنذ ذلك الحين وأنا أترقب صوتك عبر الإذاعة علك تقرأ يومًا البيان رقم (١) الحقيقي.

اليوم... وحين فتحتُ رسالتك التي كتَبتها لي قبل عشرين عامًا بالتمام والكمال، والتي بقيتْ على طيّتها الأولى يوم أرسلتَها لي ولم يثنِها الزمن؛ أحسستُ بكلماتها وكأنها كُتِبت للتو، وأحسستُ بك تلح كثيرًا على ضرورة زيارتي لك، فلم أخف من تلبية الدعوة؛ إذ لطالما كنا معًا، ولطالما عدنا معًا في المساء وأنت تُمسك بيدي.. لطالما شَعر والدايَّ بالاطمئنان علي وأنا أخرجُ معك، فلِم الخوف إذًا؟

لن أتأخر يا صديقي الحبيب، سآتي يومًا ما..
سنلتقي في أفقٍ ما..

حتى ذلك الحين، أستودعك الله، وإلى اللقاء.

❖ ❖ ❖

المؤلف في سطور

• أديب عراقي من مواليد مدينة السليمانية في إقليم كوردستان وفيها تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والجامعي.

• حاصل على بكالوريوس في اللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة السليمانية

• دبلوم فني في الكهرباء من المعهد الفني التكنولوجي في الموصل

• بدأ بالكتابة في سن مبكرة وكتب قصة الخيال العلمي، وكانت له ميول علمية.

• استمر هذا التزاوج بين العلم والأدب في قصصه حتى حسم أمره وتفرغ للكتابة الأدبية بعد أن يأس من الحصول على مقعد في كلية العلوم قسم الفيزياء كما كان يحلم.

• نشر العديد من القصص في الصحف العراقية، وأعاد نشر قسم منها في الصحف الالكترونية العربية.

• الإصدارات :

ـ انتحار غير مقصود : قصص قصيرة

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م

• البريد الإلكتروني: dilshadnajim@yahoo.com

الفهـرس

- أرض الأحـلام ٥
- ذاكـرة الشَعـر ٩
- حلم ليلة حرب ١٥
- طـرف الضياع ١٩
- رجـل الساعات ٢٥
- انتحار غير مقصود ٣١
- الورقة الأخيرة ٣٥
- طرف المستحيل الآخر ٤١
- مـيــلاد ٤٧
- حين هربت الأرقام مذعورةً منه ٥١
- الـمعطـف ٥٥
- اللـوحـة ٥٩
- الزبون الأخيـر ٦٣
- مُـولّد المصادفات ٦٩
- ضـيــاع ٧٣
- ترنيمة لربيع آخـر ٧٧
- دخان أيلول في سهولنا ٨١

- ذاكرة القلب ٨٥
  ١. داليا ٨٥
  ٢. زوران ٨٦
  ٣. المسلة ٨٧
  ٤. النهار ٨٧
  ٥. المستحيل ٨٨
  ٦. المرة الأولى ٨٩
  ٧. الكتاب الأول ٩٠
  ٨. طيور منتحرة ٩٠
  ٩. الأنيق ٩١
  ١٠. التاريخ ٩١
  ١١. أحلام ممزقة ٩٢
  ١٢. حكاية عرفان ٩٣
  ١٣. المكتبة ٩٥
  ١٤. ميرشاد ٩٧
  ١٥. ديكتاتورية الشهداء ٩٩
  ١٦. الترنيمة ١٠٠
- رسالة متأخرة إلى صديق ١٠٣

- المؤلف في سطور ١١١

شمس للنشر والإعلام

رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

شمس
للنشر والإعلام
(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net